مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

البحث اللغوي عند الهنود

وأثره على اللغويين العرب

تأليف الدكتور
أحمد مختار عمر
كلية التربية - الجامعة الليبية

lisanarabs.blogspot.com

دار الثقافة
بيروت - لبنان
١٩٧٢

البحث اللغوي عند الهنود

وأثره على اللغويين العرب

تأليف الدكتور

أحمد مختار عمر

كلية التربية - الجامعة الليبية

مكتبة لسان العرب

lisanarabs.blogspot.com

دار الثقافة

بيروت - لبنان

١٩٧٢

مقدمة

كان الهنود أسبق من العرب – ولا شك – في مجال الدراسات اللغوية ، بل ربما كانوا أسبق من اليونانيين كذلك في هذا المجال . وقد أثرت عن عن الهنود دراسات في فروع علم اللغة المختلفة تتناول الأصوات والاشتقاق والنحو والمعاجم – يرجع أقدمها إلى فترة مجهولة لنا ، ويرجع أقدم ما وصلنا منها إلى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، في حين أن الدراسات اللغوية عند العرب لم تبدأ إلا بعد ظهور الإسلام .

ومنذ اكتشفت اللغة السنسكريتية (لغة الهند القديمة) في أواخر القرن الثامن عشر ، واكتشف التراث اللغوي الهندي ، وترجمت كثير من أعماله إلى اللغات الأوروبية الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر . والمقارنات تعقد بين دراسات الهنود والعرب ، ومحاولات ربط أعمال اللغويين العرب إلى عجلة الدراسات الهندية تلقى بطريقة جزافية تارة ، وفي عجلة وتسرع تارة أخرى ، سواء من جانب المستشرقين أو من جانب المؤلفين العرب ولم أجد أحداً ممن تعرضوا لقضية التأثير والتأثر هذه قد كلف نفسه مشقة البحث والتتبع لأعمال الهنود القدماء حتى يمكنه عقد المقارنة ، ويكون من السهل عليه اكتشاف مواطن الاتفاق والاختلاف بين عملي الهنود والعرب .

وحين شرعت في دراسة هذا الموضوع ، ووجهت عناية خاصة لإنتاج الهنود رأيت أعمالا ضخمة، وجهوداً كبيرة لم يكشف النقاب عنها للقارىء العربي حتّى الآن . وقد أغراني هذا بمزيد من البحث والتنقيب حتّى اكتملت الصورة أمامي ، واتضحت معالمها ، وتجمعت عندي أكداس من المادة العلمية المكتوب معظمها بغير اللغة العربية .

وبعد أن كان عزمي يتجه — فقط — إلى دراسة قضية التأثير الهندي على اللغويين العرب رأيت من الخير أن أوسع دائرة البحث لتشمل — قبل ذلك — عرضاً مفصلا للجهود اللغوية التي قام بها الهنود . وهكذا استقر إخراج البحث في بابين على النحو الآتي :

الباب الأول : البحث اللغوي عند الهنود .

الباب الثاني : أثر الدراسات اللغوية الهندية على اللغويين العرب .

والله ولي التوفيق .

د. أحمد مختار عمر

مكتبة لسان العرب
علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

فهرس

الصفحة

الصفحة

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

البَاب الأول

البَحث اللغويّ عِندَ الهنود

مكتبة لسان العرب
lisanarabs.blogspot.com

تصدير

يقول ماكس مولر Max Muller في صدر كتابه تاريخ الأدب السنسكريتي القديم A History of Ancient Sanskrit Literature ما ترجمته :

« لن أبدأ بقولي إن التراث السنسكريتي في مثل عظمة تراث اليونان . ولماذا نلجأ دائماً إلى المقارنة ؟ إن دراسة التراث اليوناني لها هدفها الخاص، وكذلك دراسة التراث الهندي. ولكنني مقتنع — وأرجو أن أوفق في إقناعك أيضاً — أن التراث السنسكريتي — حينما يدرس بروح صادقة — مليء بالاهتمامات الإنسانية ، وبالدروس التي قد نفتقدها حتى في التراث اليوناني . »

lisanarabs.blogspot.com

الفصل الأول

نظـرة عامـة

ربما لم توجد في تاريخ البشرية عقلية مثل عقلية الهنود القدماء ، مزجت العلم بالخرافة ، وقرنت الواقع بالخيال ، واعتمدت — إلى حد كبير — في شرح أدق حقائق العلم الجافة على الأساطير .

ليس من الغريب أن تجد في أمة من الأمم علماءها العقلانيين الذين يتعمقون في البحث العلمي ويجرون وراء الحقائق المجردة ، وأن تجد كذلك أدباءها أو شعراءها الذين يطلقون لخيالهم العنان وينسجون من الوهم الأساطير . ولكن الغريب أن تجد الصفتين تتوافران في شخص واحد ، وتجد العالم يرتفع بالقارىء في بحثه وتفكيره وعمق مسائله إلى أعلى درجات التفكير الإنساني وفي نفس اللحظة يهبط به إلى أدنى درجات البشرية حين يعول على الأوهام ، وينقل القارىء إلى جو الخرافة والأساطير ، ويرتد به إلى عصور الإنسانية الأولى في عقليتها البدائية الساذجة .

ويبدو أن تعدد الاتجاهات الفلسفية واختلاف مناهجها في الهند ، بالإضافة إلى كثرة المذاهب الدينية وغلبة الجانب الميتافيزيقي عليها ، ومحاولة تفسير القوى الخفية التي تسير العالم تفسيراً يتلاءم مع عقلية الإنسان القاصرة ، وربط حقائق العلم بهذه القوى المسيرة للعالم — يبدو أن كل أولئك قد لعب دوره في تجسيم الجانب الغيبي في أي بحث ، وصبغ العقلية الهندية صبغة أسطورية . وما زالت الهند في أذهان الناس بلد التعاويذ والشعوذات ، وربة الخيال والسحر ، ولقد كانت كذلك في العصر الذي نتحدث عنه ، ولكنها كانت في نفس الوقت منارة للعلم وميداناً للبحث ، مع عمق ودقة وثاقب نظر .

ولن نقف طويلا أمام الجانب الخرافي أو الأسطوري في أبحاثهم اللغوية وإنما سنكتفي بالإشارة السريعة إلى بعض الأمثلة :

١) كان كثير من الهنود يعتقدون أن لغتهم الأساسية قد خلقها الإله لاستعمال الناس ، بـــل ويعتقدون أنها اللغة المستعملة بين الآلهة . وأطلقوا عليها وصف الوجود بدون سبب وبدون سبق عدم .

٢) من الواضح أن الهنود عالجوا مشكلة العلاقة بين اللفظ ومعناه من جوانبها اللاهوتية والروحية والنحوية والفلسفية جميعاً (١) . وسنتحدث عن هذا فيما بعد .

٣) تحدث اللغويون الهنود عن « المقطع الخفي » mystic syllable في اللغة وذكروا أنه يمثل النواة التي تكونت منها الكلمات . ويبدو أن هذه النظرية مرتبطة بنظرية التثليث عند الهنود Trinity of Gods لأن الوحدات الثلاث التي تكون المقطع تقابل الآلهة الهندية الثلاثة (٢) .

٤) يقول باتنجالي في الـ Mahabhashya : « إننا ندرس النحو فربما نكون مثل الإله العظيم » . ثم أخذ يعقد مقارنات بين أجزاء الرب وأجزاء الكلام فقال : « للنحو مثل الرب أربعة قرون وثلاثة أقدام ورأسان وسبع أيد.. أما القرون الأربعة فهي أقسام الكلام الأربعة ، وهي الأسماء والأفعال وحروف الإضافة والأدوات . وأما الأقدام الثلاثة فهي أزمنة الفعل الثلاثة الماضي والمستقبل والحاضر . وأما الرأسان فهما نوعان من الكلمات ، نوع طبيعي ونوع صناعي .. » (٣) .

٥) توجد أكثر من أسطورة تتحدث عن تلقي عدد من العلماء قواعد النحو عن الإله :

---

١) ص ٢٠ ، ٣٣٣ Chakravarti : The linguistic speculations

٢) ص ٨٩ Chakravarti : The philosophy of Sanskrit

٣) ص ١٩ .

أ ــ فهناك أسطورة عن عالم برهمي اسمه Indradhruva يقال إنه تلقى النحو بطريق الوحي .

ب ــ وهناك قصة خرافية تحكي وقوع خلاف بين « بانيني » وأستاذه ، ثم طرده لبانيني وذهاب الأخير إلى « الهملايا » حزيناً لعدم إشباع رغبته في العلم . وهناك قدم كفارة للإله Siva فتلقى عنه قواعد النحو ، وبعدها عاد بانيني وتحدى أستاذه (١) .

جـ ــ هناك في المراجع السنسكريتية تفسير لتسمية إحدى المدارس النحوية القديمة بأسماء Katantra و Kaumara و Kalapa ، وهو تفسير أسطوري يسير على النحو التالي : كان يعيش في الـ Deccan ملك يسمى Satavahana ، وبينما كان في يوم نزهة ومرح مع زوجته الملكة سألته بالسنسكريتية قائلة : « صلٍّ ، ولا ترش عليّ الماء مرة أخرى » . فلم يفهم الملك الجاهل وقدم لها بعض الحلوى . ولكنه اكتشف خطأه ، وشعر بالأسف لجهله باللغة السنسكريتية ولذا سأل الـ Pandit المسمى Sarvavarman أن يضع طريقة سريعة لتعليم النحو . شعر البانديت بصعوبة المشكلة فصلى للإله Siva الذي أمر ابنه Karttikeye أو Kumara أن يلبي رغبتـــه . وبناء على هذا تلقى البانديت النحو بطريق الوحي . وقد كانت الواسطة بين ابن الإله والبانديت في تلقي النحو طائراً اسمه Kalapin . وهذا يفسر تسمية هذه المدرسة بالاسم الأخير (٢) .

د ــ هناك أسطورة أخرى تفسر تسمية إحدى المدارس النحوية باسم

---

١) انظر Belvalkar في Systems ص ١٩ و Burvell، في On the Aindra ص ٢ ، ٣ .

٢) ص٨٢ ، ٨٣ من Systems of Sanskrit Grammar لمؤلفه Belvalkar وقارن هذه القصة بتلك التي وردت في البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٠٥ .

Jainendra . تقول الأسطورة (١) إن Indra سأل Jina — حينما كان له من العمر ثماني سنوات — عدة أسئلة في النحو ، فتلقى Jina علم النحو بطريق الوحي في شكل إجابات عن هذه الأسئلة . ولذا عرف هذا النحو باسميهما مضمومين معاً .

فلا غرابة أن يصرح الأستاذ Chakravarti بقوله : « حقيقة ثابتة هي أن الهنود القدماء كانوا أصحاب تفكير فلسفي إلى درجة كبيرة ، ومعظم أفكارهم الفلسفية كانت تقوم على أسس دينية . وحتى الأفكار اللغوية لم تتخلص من هذا السلطان الديني اللاهوتي »(٢) .

ولكن ... هل كانت كل أفكار الهنود عن اللغة من هذا النوع ؟ وهل كانت كل أبحاثهم ميتافيزيقية ؟ الإجابة — بكل تأكيد — لا . وهذا هو سر خلود هذه الأبحاث ، وسر بقائها على امتداد العصور ، وسر إعجاب العلماء المحدثين بها ، وتأريخهم بداية علم اللغة الحديث باكتشاف اللغة السنسكريتية والتراث السنسكريتي في القرن الثامن عشر . يقول Lord : « لم يكن اليونانيون ، وإنما النحاة السنسكريتيون للهند القديمة هم الرواد في حقل علم اللغة المقارن . لقد كان الهنود أصحاب مقدرة فائقة في تحليل أصوات الكلام ، مع خبرة في وضع الأنظمة النحوية المقنعة . وبدون اتصال علماء اللغة الأوربيين بهذا التراث في أوائل القرن التاسع عشر ما كان قد قدر لعلم اللغة المقارن أن يولد أبداً » (٣) . ويقول Max Muller « إن النظام النحوي الذي وضعه الهنود يعد في ذاته أقرب إلى الكمال » (٤). ويقول Chakravarti : « بناء على الحقائق التي تجمعت عن طريق الدراسة الواعية للسنسكريتية يمكن أن نقول إن النظريات والمناهج الهندية تعد على درجة عالية من الكمال العلمي . وإن عمل الهنود كان

---

١) Belvalkar المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٣.
٢) The linguistic speculations ص ١٩ ، ٢٠ .
٣) Comparative linguistics ص ٧ .
٤) مقدمة الناشر لكتاب : The Ashtadhyayi of Panini ص ١ ، ٢ .

مثمراً ومهما حتى لو قيس بمقياس العلم الدقيق » (١). ويقول Bloomfield مبيناً أثر الدراسات الهندية على علم اللغة الحديث : « لقد كانت الهند صاحبة الفضل في إحداث الثورة في الأفكار الأوربية عن اللغة .. وقد وضع النحو الهندي أمام أوربا للمرة الأولى وصفاً دقيقاً شاملا للغة مؤسساً على الملاحظة العملية لا على الافتراضات النظرية »(٢) . ويقول Robins : « إنه من الصعب – في نواح كثيرة – أن نعتقد أن علم اللغة الأوربي كان من الممكن أن يحصل مركزه اليوم بدون الأفكار التقدمية التي انتقلت إليه من أعمال لغوية تمت خارج أوربا ، وبخاصة عمل الهنود اللغويين في دراستهم للغة السنسكريتية من الناحيتين النحوية والفونولوجية » . ويقول « إن الدراسات الصوتية في القرن التاسع عشر التي حققت تقدماً ملموساً مدينة بانتفاضتها الكبيرة للمناهج الوصفية عند الهنود »(٣) .

فلا غرابة – حينئذ – أن نجد أشهر علماء اللغة الغربيين في القرن التاسع عشر من ذوي الثقافة السنسكريتية ؛ فقد زار R.K. Rask (١٧٨٧ – ١٨٣٢) الهند وأطلع على المادة الأصلية السنسكريتية ودرس اللغة الهندية . و F. Bopp (١٧٩١ – ١٨٦٧) الذي يسمى أحياناً المؤسس الحقيقي لعلم اللغة المقارن كان دارساً سنسكريتياً عظيماً. و M. Muller (١٨٢٣–١٩٠٠)، وW. D. Whitney (١٨٢٧ – ١٨٩٤) كانا دارسين سنسكريتيين مشهورين . وقد حقق الأول وترجم عدداً من النصوص السنسكريتية القديمة ، كما كتب عن تاريخ الآداب السنسكريتية . أما الثاني فقد ترجم عديداً من الأعمال السنسكريتية نشرها في مجلة الجمعية الأمريكية للدراسات الشرقية ، كما قدم دراسات عن أدب الفيدا . (٤) .

---

١) The linguistic speculations ص ١٤ من المقدمة .
٢) Language ص ٩ ، ١٠ .
٣) A short history ص ٦ ، ٢٤ .
٤) انظر Chakravarti في The linguistic speculations ص ١٦ ، ١٧ و Portraits of Linguistics الجزء الأول تحت الأسماء المذكورة .

الفصل الثاني

اللغة السنسكريتية

يطلق لفظ « السنسكريتية » على اللغة القديمة للهندوس التي بها كتب معظم تراثهم . وتنتسب هذه اللغة إلى المجموعة المسماة Indo-European أو Indo-Germanic ، وتعد اللغة الأم للهجات كثيرة مثل الـ Pali و Prakrit ولهجات شمالي الهند (١) .

وقد كان الهنود يعتقدون أن لغتهم السنسكريتية لغة مقدسة وأن الإله قد خلقها لاستعمال الناس ، بل كانوا يعتقدون كذلك أنها هي اللغة المستعملة بين الآلهة . وأطلق بعض اللغويين الهنود على لغتهم وصف « الموجودة بدون سبب وبدون سبق عدم » (٢) .

وقد ميز العلماء بين فترتين متباينتين قسموا اللغة الهندية القديمة على أساسهما. أولاهما فترة ما سموه الـ Vedic Hymns وثانيتهما فترة الـ Classical Sanskrit. أما لغة الفترة الأولى فتتميز بأن نحوها كان أقل نضجاً واستقراراً ، وبأن نظام جملتها كان أيسر وأسهل ، كما كانت تحتوي على عديد من الصيغ والاستعمالات والتعبيرات التي ماتت في الفترة التالية أو اختلف معناها فيها . ولهذا نجد أن الحاجة كانت ماسة في العصر الكلاسيكي إلى شرح نصوص الفيدا

---

١) ص ١٣ Goldstucker : Sanskrit & Culture

٢) ص ٢٠ ، ٣٦ Chacravarti : The linguistic speculations

وتحديد معانيها (١) . وعن الشعور بهذه الحاجة تولدت كل الدراسات اللغوية كما سنفصل الحديث فيما بعد .

وقد قسم شليجل Schlegel اللغات إلى قسمين رئيسيين ؛ قسم تصريفي وقسم لصقي ، ووضع اللغة السنسكريتية تحت القسم الأول (٢) . وقد ماتت اللغة السنسكريتية منذ مدة طويلة ولكن أعيد اكتشافها في أواخر القرن الثامن عشر على أيدي الدارسين الأوربيين(٣) . ويقول الأستاذ Bhandarker : «إن اكتشاف اللغة السنسكريتية والأنظمة النحوية الهندية قرب نهاية القرن الماضي (القرن ١٨) قد أدى إلى ثورة كاملة في الأفكار الفلولوجية في أوربا»(٤). ويقول Whitney : « إن اكتشاف السنسكريتية قد خلق عصراً جديداً في علم اللغة » . ويقول البروفسر Sayce : « ما أطلق عليه اكتشاف اللغة السنسكريتية على يد باحثين غربيين قد وضع حداً لكل التلاعب بالألفاظ وخلق علم اللغة » (٥) .

وقد كان Sir William Jones أول من اكتشف العلاقة الوثيقة والتشابه الكبير بين السنسكريتية واليونانية ، مما أداه إلى أن يصل إلى نظرية وجود أصل واحد لهما . ويقول Schlegel : « إن أوجه الشبه بين السنسكريتية واللغات الأوربية الأخرى لا تعود إلى مجرد الصدفة أو الاقتراض المتبادل ، وإنما تعود إلى ما بينهما من قرابة وثيقة » (٦) .

وتحتوي اللغة السنسكريتية على نحو ألفي جذر أو أصل اشتقاقي . وبينما

---

١) ص ١٣ Goldstucker : Sanskrit & Culture
٢) ص ١٥ المرجع السابق Chakravarti
٣) ص ٢ Leroy : The main trends in modern lingiustics
٤) ص ١٠ ، ١١ المرجع السابق Chakravarti :
٥) المرجع السابق ص ١٢ ، ١٣ .
٦) المرجع السابق ص ١١ ، ١٥ .

الجذر في اللغات السامية جماع ثلاثة سواكن ، فإن جذور اللغة السنسكريتية عادة ذات مقطع واحد monosyllabic . وتوجد أعداد كبيرة من الكلمات تدور حول الجذر الواحد عن طريق إضافات أو تغييرات لهذا الجذر أو المادة الخام . ونادراً ما يوجد في السنسكريتية أصل ذو ثلاثة سواكن Tri-consonantal وقد توجد أصول ذات سواكن مضعفة (١) . وقد كانت هذه الجذور وما يدخل عليها من تغييرات محل اهتمام اللغويين الهنود كما سنتحدث فيما بعد .

واللواحق التي تضاف للجذور في اللغة السنسكريتية ليست مشتقة أساساً من كلمات مستقلة (عكس ما هو في الإنجليزية مثل man-hood) ، وهي وحدات صغيرة تشمل تقريباً كل الفونيمات الممكنة . ومن ذلك مثلا اللاحقة a التي تضاف عادة لتفيد التأنيث مع الصفات المنتهية بعلة . وتحتوي السنسكريتية على ثلاثة أجناس : مذكر ومؤنث ومحايد . والفعل في السنسكريتية ينقسم إلى أربعة أزمنة : ماض ، وماض حدث لتوه ، وحاضر ، ومستقبل (٢) . وينظر إلى الفعل – متصرفاً بحسب الشخص والعدد والزمن – على أنه محور الجملة (في السنسكريتية يمكن للفعل أن يكون جملة كاملة وحده) ، أما الكلمات الأخرى فتأخذ علاقات معينة بالفعل . وأهم هذه الكلمات الأسماء في حالاتها الإعرابية المختلفة . وللأسماء علاقات – ذات أشكال مختلفة – بالفعل ولكن أهمها علاقتا الفاعليـــة والمفعولية . ولا تدخل حالة الإضافة Genitive Case (في السنسكريتية) في العلاقات السابق الإشارة إليها ، لأنها تربط اسماً باسم لا اسماً بفعل (٣) .

وقد لاحظ بعض الباحثين أن الكلمات التي تحمل أكثر من معنى موجودة

---

١) المرجع السابق ص ٢٢٢ ، و Ballantyne في First lesson ص ٦٠٣.

٢) Burrow في The Sanskrit Language ص ١١٧ ، ١٥٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

٣) Robins : A Short History ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

بكثرة في السنسكريتية حتى إن الكلمة الواحدة قد تفيد أكثر من اثني عشر معنى. ثم عقب على ذلك بقوله : « وإذا اعتبر تعدد المعنى علامة الحضارة فإن السنسكريتية ربما تزعم لنفسها أنها لغة قوم ذوي حضارة عالية (١) .

---

١) Chakravarti : The Linguistic ص ٤٢٠ .

الفصل الثالث
الألفباء الهندية

من أعقد المشكلات التي تواجه الباحث في الثقافة الهندية معرفة تاريخ الكتابة ومصدرها وشكل الألفباء التي كانت مستعملة في القديم وعدد حروفها . ويبدو أن الإجابة الحاسمة على كل هذه الأسئلة مستحيلة نظراً لارتباطها بعصور موغلة في القدم ربما لا نعرف عنها الآن شيئاً ذا بال .

وقد قدم العلماء عدداً من الفروض بالنسبة لبدء الكتابة عند الهنود ، فيرى Max Muller أن ذلك لم يتم حتى عصر بانيني (حوالي ٦٠٠ ق م) ، مع احتمال جهل بانيني نفسه بالكتابة . ولكن Goldstucker يرفض بشدة هذا الرأي ويرى أنه من غير المعقول أن توجد حضارة راقية بدون كتابة (١). ويرى Burrow أن بدء الكتابة في الهند تم بعد ذلك وأنه لم يقع إلا في القرن الثالث ق م (٢) .

أما مصدر هذه الألفباء فمحل خلاف كبير كذلك :

١)فمجموعة من العلماء ترى أنها ألفباء هندية صرفة من عمل الهنود . ومن هؤلاء :

أ — Bhattacharyya الذي يرى أن الهنود وجدوا الطريق إلى ألفبائهم بأنفسهم وأنهم لم يقترضوها من أي إنسان آخر ، وأنه لم يكن معروفاً أنها

---

١) ص ١٦ وما بعدها — Panini : his place in Sanskrit literature

٢) ص ٦٤ — The Sanskrit language

استعملت على يد غيرهم ، وأن الهند قد حاولت بطريقتها الخاصة ، وطورت نظامها بنفسها (١) .

ب – Buhler الذي يرى نفس الرأي ويرفض ما يقال من أن الهنود قد تعلموا فن الكتابة من الأجانب ويعلل هذا بقوله : إن هذا الاعتقاد ليس مبنياً على بحث علمي . وقد وقع أصحابه تحت تأثير مشابهة بعض الحروف الهندية للحروف السامية ، وما هو معروف من أن الحضارة الا Indo-Aryan تضمنت عناصر كثيرة ومتنوعة مقترضة من الأمم الغربية مثل السامية والفارسية واليونانية (٢) .

جـ – Cunningham الذي يقول إنها اختراع هندي. (٣)

٢) ومجموعة أخرى ترى أن الهنود قد تعلموها من الأجانب . وهناك نظريات كثيرة تشرح طريقة تقديم هذه الحروف إلى الهندية مثل :

أ – نظرية Weber التي تقول إنها مأخوذة مباشرة من أقدم الأبجديات السامية وهي الفينيقية .

ب – نظرية Deecke التي تقول إنها مأخوذة من طريق غير مباشر عن السامية الجنوبية .

جـ – نظرية Issac Taylor التي تقول إنها مأخوذة مباشرة من أبجدية سامية جنوبية .

د – نظرية M. J. Halevy التي تقول إنها مركبة من عدة ألفباءات منها الآرامية واليونانية .

---

١) ص ٩٧ The language and script of ancient India
٢) ص ٢٥٨ Aggarwal : A short history of Sanskrit
٣) المرجع والصفحة .

هـ — ويقدم Buhler نظرية أخرى مفادها أنها مأخوذة من السامية الشمالية ، وبالتحديد من إحدى الصور المتأخرة للأبجدية السامية الشمالية الشرقية . ويؤيد نظريته بما وجده من أن هناك ٤٤ حرفاً من الألفبائية الهندية القديمة Brahmi أمكن ردها إلى رموز سامية وأنها أخذت إما عن طريق النقل أو الاشتقاق من الاثنين وعشرين رمزاً السامية (١) .

وأهم ما وجه من اعتراضات على هذه النظرية أنه لم يكن هناك في الساميات أي رموز للعلل القصيرة كما لم يكن هناك تفريق بين العلة الطويلة والعلة القصيرة . ولكن يمكن أن يجاب عن ذلك بسهولة بأن يقال إنه قد أدخلت بعض تعديلات على الأبجدية السامية لتتناسب مع نظام الأصوات الهندية وذلك عن طريق إضافة بعض الرموز وتغيير بعضها الآخر (٢) . وهذا كثيراً ما يحدث في حال اقتراض الأبجديات ، وقد حدث مثلا مع اللغة القبطية حينما استعارت في القرن الرابع أو الخامس الميلادي الأبجدية اليونانية ؛ فقد أضافت إليها سبعة رموز من الكتابة الديموتيقية لتعبر عن أصوات لا وجود لها في اللغة اليونانية (٣) .

و — ويقترح Burrow أن يكون الهنود قد استخدموا ألفباءين اثنين وفدا عليهم من الخارج . أما الأولى فتسمى Kharosthi ، وتكتب من اليمين إلى اليسار ، وقد كانت مقصورة على الجزء الشمالي الغربي من الهند . ويرى أن أصل هذه الألفباء آرامي ، وأنها ظلت مستعملة في بعض المناطق حتى القرن الرابع الميلادي . وأما الثانية فتسمى Brahmi ، وكانت تكتب من اليسار إلى

---

١) ص ٢٥٨ ، ٢٦٠ المرجع السابق : Aggarwal

٢) انظر المرجع السابق ص ٢٦١ هامش . وانظر كذلك Burrow ص ٦٤ ، ٦٥ .

٣) انظر Moorhouse في The triumph of the alphabet ص ٧٦

و Diringer في The alphabet ص ٤٧٠ وعبد المسيح : الأساس المتين ص ٥ — ٩.

اليمن ، وهي مصدر الألفباءات الهندية المتأخرة . ويرى أن هذه الألفباء مأخوذة أيضاً من بعض أشكال الألفباءات السامية التي ربما وردت عن طريق التجار من مناطق سامية جنوبية إلى غرب الهند(١) . ويرى غيره أنها ربما ترجع إلى أصل آشوري ، أو إلى عدة أصول مختلفة(٢) .

ومهما يكن من شيء فقد تعرضت الأبجدية الهندية لعدد من التعديلات من قرن لآخر ، ونقص عدد حروفها أو زاد من وقت لوقت ، أو من مكان إلى مكان . بل ربما وجدت عدة ألفباءات في وقت واحد يستخدم كل منها في جزء من أجزاء البلد(٣) . وقد قدم لنا Buhler بياناً بأقدم أبجدية هندية عرفت ، وكانت تتكون من ٥١ رمزاً على النحو التالي :

(اقرأ من اليسار إلى اليمين)

1 — a	2 — ā	3 — i	4 — ī
5 — u	6 — ū	7 — ṛ	8 — ṝ
9 — ḷ	10 — ḹ	11 — e	12 — ai
13 — o	14 — au	15 — aṃ	16 — aḥ
17 — ka	18 — kha	19 — ga	20 — gha
21 — ña	22 — ca	23 — cha	24 — ja
25 — jha	26 — ñ̃a	27 — ṭa	28 — ṭha
29 — ḍa	30 — ḍha	31 — ṇa	32 — ta
33 — tha	34 — da	35 — dhe	36 — na
37 — pa	38 — pha	39 — ba	40 — bha
41 — ma	42 — ya	43 — ra	44 — la
45 — va	46 — Śa	47 — ṣa	48 — Sa
49 — ha	50 — ḷaṁ	51 — kṣa (٤)	

(١) The Sanskrit Language ص ٦٤ .

(٢) Buhler في On the Origin of tne Indian Brahma Alphabet ص ٢.

(٣) انظر Whitney في A Sanskrit Grammar ص ٢ ، و Chatterji في Sanskrit in Perso-Arabic script ص ١٢٢ .

(٤) انظر On the Origin... ص ٢٨ .

وذكر Whitney أن هذه الأبجدية هي التي كانت مستعملة في قلب الهند ، ولذا اختارها الدارسون الأوربيون . وقال إنها الأبجدية التي اتبعها وصنفها النحاة الهنود واستعملها أصحاب الفهارس والمعاجم الهندية .

والشيء الذي يجب أن نلفت النظر إليه هنا هو أن هذه الأبجدية قد بدأت بالعلل البسيطة (الرموز العشرة الأولى) ثم العلل المركبة (الرموز الأربعة التالية) ثم السواكن(١) . ويلاحظ أيضاً أنها في ترتيب العلل بدأت بالألف التي لا يمكن أن تنسب لمكان معين ، ثم تلتها بالرمزين الثالث والرابع وهما غاريان(حنكيان) Palatal ، ثم الرمزين الخامس والسادس وهما شفويان Labial ، ثم السابع والثامن وهما لسانيان Lingual ، ثم التاسع والعاشر وهما أسنانيان dental . فإذا انتقلنا إلى السواكن نجد الرموز ١٧ — ٢١ لأصوات حلقية guttural ، و ٢٢ — ٢٦ لأصوات غارية (حنكية) Palatal ، و ٢٧ — ٣١ لأصوات لسانية lingual و ٣٢ — ٣٦ لأصوات أسنانية dental ، و ٣٧—٤١ لأصوات شفوية labial . أما الرموز الأربعة التالية ، فهي أنصاف علل semi-vowels . وقد بدىء برمز الصوت الغاري ، ثم اللساني ثم الأسناني ثم الشفوي . أما الرموز ٤٦ — ٤٨ فهي لأصوات يمكن أن تسمى أصوات الصفير Sibilants . والرمز التاسع والأربعون لصوت يوصف بالنَّفَسية aspiration (٢) . ويلاحظ أخيراً أنه في حال السواكن كان يقرن الرمز بحرف العلة a .

ومن الواضح أن الألفباء السنسكريتية قد أقيمت على أساس فونيمي . وربما

---

١) A Sanskrit Grammar ص ٢ ، ٣ .

٢) انظر المرجع السابق ص ٢ ، ٣ . وهناك ألفباء ذكرها Uhlenbeck في كتابه : A Manual of Sanskrit Phonetics تتكون من ٤٩ رمزاً وتختلف قليلا عن الألفباء التي عرضناها . انظر ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

كان الرمز الزائد الوحيد هو ذلك الخاص بالساكن الأنفي الحنكي [ɲ (a)] حيث إن [ɲ] تقع فقط كألوفون للصوت المرموز إليه بـ /n/ في مجاورته لصوت ساكن حنكي (١) .

وقد ذكر العلامة Skold أن بعض الأبجديات الهندية جاءت بترتيب مخالف :

أ ـ فمنها ما بدأ بالعلل ثم أنصاف العلل ثم الأنفيات ثم السواكن ثم أصوات الصفير .

ب ـ وبعضها خالف في ترتيب العلل فيما بينها أو أسقط بعضها .

جـ ـ وبعضها جاء بدون رمز للعلة الطويلة .

د ـ وبعضها وضع h قبل أصوات الصفير ، وبعضها بعدها .

هـ ـ وبعضها وصل بالرموز إلى ٦٥ رمزاً ذاكراً للعلة ٢٣ رمزاً وللساكن٤٢. وغير ذلك (٢) .

* * *

---

١) Robins في A short history ص ١٤٣ .

٢) انظر papers on Panini ص ٩ – ١٦ .

الفصل الرابع

اشهر اعلامهم

يقول الأستاذ L. Sarup : إن « التأريخ يعد أضعف نقطة في التراث السنسكريتي حيث لا يوجد تأريخ في الحقيقة . لا يوجد تحت أيدينا تسجيل للتراجم أو بيان بالسنوات . ولهذا فنحن نفتقد تماماً أي مادة تساعد على تحديد التواريخ حتى بالنسبة للأعلام المشهورين جداً » (١). ولا نريد أن نظلم المؤرخين وكتاب التراجم من الهنود فنتهمهم بالإهمال أو التقصير ، فأغلب الظن أنهم قاموا بتسجيل دقيق لأحداثهم التاريخية وترجموا لأشهر علمائهم ولكن امتدت يد الزمن إلى إنتاجهم ولم يصلنا منه إلا القليل . وعلى هذا فليس أمام من يتصدى للدرس السنسكريتي أو يحاول التعريف بالعلماء الهنود وترتيبهم على حسب الأزمنة والتواريخ — إلا أن يلجأ إلى الحدس والتخمين والتقاط بعض الأحداث من هنا وهناك . ولهذا نجد شقة الخلاف بين الدارسين في تحديد التواريخ واسعة ، والتفاوت بينهم يبلغ المئات من السنين . وإلى جانب ذلك فالمعلومات التي حفظتها لنا المراجع الأصلية بشأن حياة أولئك الأعلام وثقافتهم وبيئتهم ونشاطهم العلمي وغير ذلك مما لا غنى للدارس عنه — أقول إن هذه المعلومات لا تكاد تشغل بضعة أسطر وأحياناً بضع كلمات . ولكن يعوض عن هذا أن المصادر اللغوية متوفرة نسبياً — وهي ولا شك موضع

---

١) ص ٥٣ The Nighantu and The Nirukta

اهتمامنا الأول . وقد استطاع بعضهم أن يستخلص من بعض هذه المصادر معلومات قيمة جغرافية واجتماعية واقتصادية وأدبية ودينية وسياسية ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ Agrawala في كتابه India as known to Panini الذي بذل في هذا السبيل جهداً يستحق التقدير والإعجاب .

وأعلام اللغويين من الهنود كثيرة ، ولكننا سنكتفي بأشهرهم أو بمن وصلتنا مؤلفات لهم ، بشرط أن يكونوا في الفترة التي سبقت أو عاصرت أوليات الدراسات اللغوية عند العرب ؛ لأن الهدف من دراستنا هذه ربط جهود الهنود بجهود العرب ومعرفة مدى تأثير الهنود على العرب في مجال الدراسات اللغوية إن كان قد حدث ذلك .

(١) ياسكا Yaska

وضعه Chakravarti في وقت غير متأخر عن ٧٠٠ ق م ، أي في وقت أقدم من بانيني (١) (سيأتي تفصيل الحديث عنه) . وذكر skold أن هناك احتمالات قوية بمعاصرته لبانيني ، أو حتى إمكانية تأخره عنه (٢) . ولكن الرأي الأول أشهر .

وترجع أهمية ياسكا إلى أنه يعتبر مؤسس علم الاشتقاق Etymology عند الهنود ، وقد وضع في ذلك كتاباً عرف باسم Nirukta (= التفسير) ، وهو يعتبر أقدم ما وصلنا في هذا الخصوص (٣) . ويعد هذا الكتاب شرحاً لأحد

---

١) The philosophy of Sanskrit Grammar ص ٢٤ .

٢) Papers On Panini ص ٤٠ .

٣) Varma في The Etymologies of Yaska ص ١١ مقدمة .

الكتب المسماة Nigranthu (= المجموع المرتب) والتي حرفت فيما بعد إلى Nighantu . (١) ولا تعد الـ Nighantu معجماً ، لأنها لا تحوي أي شروح للكلمات المجموعة لا بالسنسكريتية ولا بأي لغة أخرى . ولذا فمن الأنسب أن تسمى مجموعاً للمفردات Vocabulary (٢) . وكل ما تحويه الـ Nighantu مجموعة أو قائمة من الكلمات الصعبة المأخوذة من النصوص المقدسة Vedic Texts (٣) . وهناك في الواقع أكثر من Nighantu (٤) ، ولا نعرف بالتحديد مؤلف هذه الـ Nigantu التي شرحها ياسكا ، ولعلها من إنتاج جيل كامل أو عدة أجيال، وليست من إنتاج شخص بمفرده(٥) . ولا يعرف الأصل الاشتقاقي لكلمة Nighantu ، ولكن ذكر بعضهم أنها تطلق على « مجموع من الكلمات المترادفة » ؛ وذكر بعض آخر أن معناها « مجموع من الكلمات » (بدون اشتراط الترادف) (٦) ، وذكر آخرون أنها تختص بالكلمات الغامضة التي جمعت بهدف تصنيفها تحت أبواب محددة (٧) .

والـ Nighantu التي شرحها ياسكا تحوي خمسة أبواب ، تتناول أبوابها الثلاثة الأولى ألفاظ الترادف ، والرابع ألفاظ المشترك اللفظي ، والخامس ألفاظاً تتعلق بالآلهة . وهناك بعض النظام في الأبواب الثلاثة الأولى ، حيث يعالج الباب الأول الأشياء الحسية مثل الأرض والهواء والماء، والأشياء

---

١) Weber في The History of Indian Literature ص ٢٥ .

٢) Sarup في The Nighantu and the Nirukta ص ١٤ .

٣) انظر Sarup : المرجع السابق ص ١٣ ، و Skold في كتابه The Nirukta ص١ .

٤) Skold في المرجع السابق ص ٧ .

٥) Sarup في المرجع السابق ص ١٤ .

٦) Bhattacharya في Yaska's Nirukta ص ٣٧ .

٧) نسب هذا الرأي إلى العالم اللغوي Durga . انظر المرجع السابق ص ٢٥ .

الطبيعية مثل السحاب والقمر والنهار والليل . أما الثاني فيعالج الإنسان وما يتعلق به من صفات وعيوب . وأما الثالث فيعالج الأشياء المعنوية (١) .

وقد وصلنا نصان لا Nirukta أحدهما مطول ، والثاني مختصر (٢). والنسخة المطولة لا تحتوي على شرح للكلمات فحسب بل تضيف كذلك بعض كلمات لا وجود لها في الا Nighantu (٣) . وقد كان ياسكا يحاول في شرحه أن يقتبس من الفيدا Vedas ليوضح معاني الكلمات ويربط الكلمة بأصلها الاشتقاقي ، ويتطرق إلى بعض الأحداث الاجتماعية والتاريخية في محاولاته لتتبع الأصل القديم لهذه الكلمات (٤) . ولم يكن هدف ياسكا حصر كلمات الا Vedas الصعبة وإنما إعطاء القارىء فكرة عن الطرق والأسس المتعلقة بالاشتقاق حتى يخلق عنده القدرة على أن يصل بنفسه – على ضوء ما تعلمه منها – إلى معاني الكلمات الغامضة فيها وطرق اشتقاقها (٥) .

وقد بدأت الا Nirukta بشرح العنوان قائلة : « هذه قائمة بالكلمات قد وصلتنا وستشرح هنا . مثل هذه القائمة تسمى Ni-ghantaavas بمعنى الكلمات المقتبسة أو الكلمات المجموعة بعضها بجانب بعض » . وتلا ذلك بابان تمهيديان تناول أولهما أقسام الكلمة ، وقضية اشتقاق الأسماء من الأفعال ، وأهمية الاشتقاق وغيرها . وتناول ثانيهما أسس الاشتقاق . وبعد ذلك أتت قوائم المفردات موزعة على أبوابها على النحو السابق ذكره (٦) .

---

١) Sarup المرجع السابق ص ١٣ ، ١٤ .
٢) Skold المرجع السابق ص ١٢ من المقدمة .
٣) المرجع السابق ص ٩ .
٤) ص ٨ Belvalkar : Systems of Sanskrit Grammar
٥) ص ٢٦ Bhattacharya : Yaska's Nirukta
٦) انظر النسخة التي حققها Sarup ص ٥ وما بعدها .

وعلى الرغم من أن عمل ياسكا قد قوبل منذ ظهوره بحفاوة بالغة واعتبر واحداً من أهم الكتب التي تخدم الـ Vedas فإن ذلك العمل – على عكس عمل بانيني – لم تؤلف حوله شروح كثيرة . وليس معنى هذا أنه لم يجذب إلا أتباعاً قليلين أو أن آراءه ومبادئه لم تحتل فكر الأجيال التالية . بل على العكس ، لقد اعتبر ياسكا أول ثقة كتب في علم الاشتقاق ، وهو مؤسس النظرية القائلة بأن كل اسم مشتق من أصل فعلي ، وقد دافع عن نظريته هذه بحرارة ضد ما وجه إليها من اعتراضات . وهذه النظرية كانت الأساس الذي بنى عليه بانيني كتابه الشهير في النحو . والسبب إذن لا يرجع إلى إهمال الكتاب أو عدم تقدير قيمته ، وإنما يرجع إلى أنه هو نفسه شرح وليس عملا مستقلا ، ولهذا فهو ليس في حاجة إلى شروح أخرى . كذلك فإن ياسكا كتب مؤلفه بلغة نثرية تسهل قراءتها وفهمها إذا قورنت بلغة بانيني مثلا .

ومع ذلك فقد عرفنا عدة شروح لكتاب ياسكا منها :

١) شرح Ugra وليس هناك أي معلومات عنه .

٢) شرح Shandasvomi ومنه مخطوطة في باريس .

٣) وأهمها شرح Durga الذي يبدو أنه عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد عثر على مخطوط له من القرن الرابع عشر وتم تحقيقه ونشره (١).

وسوف نخصص مساحات أخرى لياسكا فيما يتبع من بحوث وبخاصة في بحث الاشتقاق .

---

١) انظر ص ٤٩ ، ٥٠ Sarup : The Nighantu and the Nirukta
و ص ٩ Belvalkar : Systems of Sanskrit Grammar

(٢) بانيني Panini

لم يختلف في تحديد زمن أحد من لغويي الهنود كما اختلف في شأن بانيني ، رغم ما يتمتع به من سمعة هائلة وصيت ذائع ، ورغم كثرة ما خلع عليه من صفات الريادة والعبقرية والنبوغ . لقد وضعه الباندیت Samasrami قبل ياسكا واقترح له حوالي عام ٢٤٠٠ ق.م(١) ، ووضعه الدكتور Peterson في وقت متأخر جداً بالنسبة لما فعله غيره وذلك حوالي أول عصر المسيحية (٢) . وبين هذين التاريخين تتفاوت الآراء وتختلف . فوضعه بعضهم بين عامي ٧٠٠ و ٦٠٠ ق.م (٣) ، وبعضهم حوالي ٥٠٠ ق.م (٤) ، وبعضهم في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد (٥) ، وبعضهم بعد عام ١٤٠ ق.م (٦) . وربما كان أقرب الآراء إلى القبول الرأي الذي يضعه بين عامي ٧٠٠ ، ٦٠٠ ق.م(٧) .

و « بانيني » ليس الاسم الشخصي لعالمنا وإنما اسم أسرته . أما اسمه هو فقد اختلف فيه كذلك ، فقيل هو Ahika ، وقيل Salanki (٨) ، وقيل Salaturiya . ولعل الاسم الأخير نسبة إلى البلدة التي ولد وعاش فيها وهي Salatura وهي بلدة في أقصى الشمال الغربي للهند كانت تقع مكان « لاهور » الآن (٩) .

---

١) ص ١٤ Belvalkar : Systems of Sanskrit Grammar
٢) المرجع السابق ص ١٣ .
٣) انظر ص ١٩٠ Varadachari : A history of the Sanskrit literature.
٤) ص ١ مقدمة Chatterji : Patanjali's Mahabhashya
٥) ص ٢١٧ Weber : The history of Indian literature
٦) المرجع السابق ص ٢١٨ .
٧) ص ١٥ Belvalkar : Systems of Sanskrit Grammar
٨) ص ١٩ Misra : The Descriptive Technique of Panini
٩) ١٢٣ Goldstrucker : Sanskrit & Culture و ١٨ ، و ١٩ Belvalkar : Systems of Sanskrit و Misra المرجع السابق ص ١٨ .

وقد ألف بانيني عدة كتب في اللغة والنحو عرف الباحثون منها كتاباً بعنوان Dhatupatha ، جمع فيه قائمة بأصول الكلمات أو جذورها ، وكتاباً آخر بعنوان Ganapatha أي قائمة الكلمات (١) . ولكن عمله الرائع الذي خلد اسمه هو كتابه في النحو السنسكريتي المسمى Ashtadhyayi ، والذي يعد أقدم كتاب وصلنا في موضوعه . والكتاب — كما يدل الاسم — مقسم إلى ثمانية أقسام « Adhyayas-ashta » — وكل واحد من هذه الأقسام الثمانية مقسم إلى أربعة فصول . وهكذا تم طبع الكتاب في ٣٢ فصلا بتحقيق وترجمة الأستاذ Vasu (٢) .

وقد سبق بانيني بنحاة كثيرين ولكن لم تصلنا أعمالهم ، وإن كان من المؤكد أن هذه الأعمال كانت تحت يد بانيني وأنه استفاد بها في كتابه المذكور (٣) . وعلى هذا لا يعد بانيني رائد هذا الحقل وإن عد « واضع المنهج العلمي للنحو » (٤) .

وقد لاقى كتاب بانيني منزلة ممتازة سواء بين القدماء أو المحدثين فقد وصفه باتنجالي (سيأتي الحديث عنه فيما بعد) بأنه «محيط واسع من العلم» وبأنه « محيط واسط أتقن صنعه » . وذكر أن سر قبوله لدى الجميع أنه أقيم على المادة الممكن الحصول عليها من المدارس المختلفة لدراسة النصوص المقدسة . ويقرر Burvell أنه « لم يكن يمكن لهذا العمل أن يصل إلى هذه الشهرة لو لم يكن قد نال درجة كبيرة من إعجاب البراهمة أكثر مما سبقه من

---

١) ص ١٩٠ Varadachari: A history of the Sanskrit literature
٢) انظر ص ١ ، ٢ من كتاب بانيني .
٣) ص ١٩٠ Varadachari : A history of the Sanskrit
٤) ص ٢٨ Chakravarti : The philosophy of Sanskrit grammar

كتب ورسائل متعددة لا شك أنها كانت موجودة زمن ظهور كتاب بانيني » (١) . أما المحدثو ن فإليك شهاداتهم :

Belvalkar : « عمل بانيني الخالد هو Ashtadhyayi . وهو يقف متميزاً دائماً — وسيقف ما بقيت الدراسات السنسكريتية — كعمل خالد وكبحث مستفيض وعمل فني متكامل » (٢) .

Whitney : « إن جهد المدرسة النحوية السنسكريتية قد وصل إلى قمته على يد بانيني الذي حوى كتابه حقائق اللغة وألقى ضوءاً على قواعد النحو بصورة مختصرة ... وقد أصبح هذا الكتاب بعد ذلك مرجع كل العلماء ومصدرهم الوثيق ومعيار الصواب اللغوي » (٣) .

Burvell : « لا مشاحة في أن نحو بانيني كان نقطة انطلاق في التراث الهندي . لقد أصبح اسمه يتردد في كل مكان ، ومؤلفاته جبت كل مؤلفات السابقين ، كما أظهرت عجز ما لا يحصى من المؤلفين الذين جاءوا بعده . لقد كانت كلمة بانيني قانوناً في الهند فيما يتعلق بكل مسائل النحو » (٤) .

Max Muller : « كل الذين تعقموا في دراسة بانيني يقدرونه ولا شك ويعترفون بأنه لا يوجد نحو في أي لغة يمكن أن يعادل نحوه »(٥) .

---

١) ص ١٩ ، ٢٠ Agrawala - India as known to Panini

٢) ص ١٢ ، ١٣ Systems of Sanskrit grammar

٣) ص ١١ مقدمة A Sanskrit grammar

٣) ص ٣٨ On the Aindra School

٥) مقدمة الـ Ashtadhyayi ص ١ ، ٢ .

Vacu : « إن عمل بانيني يمثل أول محاولة في تاريخ العالم لوصف اللغة وتحليلها بطريقة علمية . إن عمل بانيني لم يتله ما يفوقه في معالجة موضوع دراسة اللغة بطريقة اقتصادية » (١) .

Weber : « عمل بانيني استمر يستخدم أساساً للدرس النحوي ولمعيار الاستعمال اللغوي ربما حتى عصرنا الحاضر»(٢) .

Goldstucker : « بانيني أعظم نحوي عرف في الهند القديمة ، وما زال نحوه حتى اليوم يعد نموذجاً للنحو الهندي » (٣) .

Whorf : « إن علم اللغة الحديث يؤرخ من وقت معرفة العالم الغربي لبانيني الذي يعد أقدم صورة للعلم ساهمت في أحدث صورة له» (٤) .

Bloomfield : « إن نحو بانيني يعد واحداً من أعظم الشواهد القديمة على تقدم العقل البشري . إنه يصف – بكل دقة وتفصيل – كل تصريف واشتقاق وتركيب ، وكل استعمال نحوي في لغته . ولا توجد لغة أخرى في العالم حتى عصرنا الحاضر قد وصفت بمثل هذه الدقة » (٥) .

Robins : « بين كل النحاة الهنود يقف اسم بانيني متميزاً عن غيره . إن عمله يعد أقدم دراسة نحوية تصل إلينا لأي لغـــة

---

١) المرجع السابق
٢) ص ٢٢٢ The history of Indian literature
٣) ص ١٢٣ Sanskrit and Culture
٤) ص ١١١ Misra : The descriptive technique of Panini
٥) ص ١١ Language

هند أوربية ، وأقدم عمل علمي في أي لغة هند أوربية . وكما يقول بلومفيلد إنه يعد واحداً من أعظم الآثار العلمية التي أنتجها العقل البشري » (١) .

ويحتوي كتاب بانيني على ما يقرب من أربعة آلاف قاعدة موزعة على أقسامه الثمانية (٢) . على النحو الآتي :

١) يشتمل القسم الأول على تعريفات عامة وقواعد للشرح ، كما يعالج مشكلات صوتية متنوعة .

٢) أما القسم الثاني فيعالج مشاكل الإبدال ، وهدف التصريف ، ووضع قواعد للجنس (مذكر ومؤنث ومحايد) والأعداد (مفرد ومثني وجمع) .
٣) أما القسم الثالث فيتحدث عن اللواحق الأساسية .

٤ ، ٥) وأما القسمان الرابع والخامس فيتعرضان للواحق التي يمكن إضافتها للأصل غير الفعلي مكونة جذراً غير أساسي ولواحق تصريفية .

٦ ، ٧) أما القسمان السادس والسابع فيتناولان بحوثاً صرفية صوتية على مستوى الكلمة Morpho-phonemic

٨) وأما القسم الثامن والأخير فيعالج مشاكل متنوعة (٣) .

وأهم ما يعيب الكتاب عدم وجود الربط بين هذه الأقسام ، وضرورة أن يذهب الباحث خلال العمل كله قبل أن يجد طلبته (٤) . كما أن الاختصار

---

١) ص ١٤٤ A short history of linguistics
٢) ص ١٩ Belvalkar : Systems of Sanskrit
٣) Misra في The Descriptive Technique of Panini ص ٢٢ ، ٢٣ .
٤) المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٤ .

الشديد الذي التزمه المؤلف – لتسهيل الحفظ – حول العمل – بمرور الوقت – إلى ألغاز وأحاج حتى بالنسبة للمتخصصين في المجال السنسكريتي (١) . وهذا هو السر فيما بذله بعض المتأخرين من محاولات لإعادة ترتيب الكتاب من ناحية ، ولشرحه وإيضاح غامضه من ناحية أخرى .

وقد اعتبر العلماء عمل بانيني دراسة وصفية تزامنية Synchronic description للغة السنسكريتية المتمثلة في لغة رجال للدين ، ولغة الطقوس ، ولغة الحياة ، مع الأخذ في الاعتبار اللهجات المحلية ، والاختلافات الطبقية (٢) ، والأدب الشعبي ، والتقاليد المحلية ، والألعاب الرياضية ، وأسماء العملات والموازين والمقاييس ... الخ . وبالجملة رجع بانيني إلى كل المصادر الممكنة للمادة اللغوية في البلاد(٣) .

وقد كتبت عدة شروح وتعليقات على عمل بانيني ، منها شرحا كاتيايانا وباتنجالي (وسيأتي الحديث عنهما) والشرح المسمى The kasika الذي يرجع إلى حوالي عام ٧٠٠ م (٤) .

وقد نسب إلى بانيني بعض الشعر ، ولكن يبدو أنه « بانيني » آخر ، أو أن أحد الشعراء المتأخرين قد قاله ونسبه لبانيني النحوي (٥) .

---

١) انظر Belvalkar في Systems ص ٢٢ ، ٢٣ و Shefts في Grammatical Method ص ٩ مقدمة و Robins في A short history ص ١٤٤ .
٢) Misra المرجع السابق ص ١٢ .
٣) Agrawala في India as known to Panini ص ١٧ .
٤) انظر Burrow في The Sanskrit language ص ٤٩ .
٥) Agrawala في المرجع السابق ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) كاتيايانا Katyayana

عاش كاتيايانا في تقدير بعضهم بين عامي ٥٠٠ و ٣٥٠ ق‌م. (١) ، ووضعه بعض آخر بين عامي ٤٠٠ و ٣٠٠ ق.م. أي بحوالي قرن أو قرنين بعد بانيني على افتراض أن الأخير عاش حوالي سنة ٥٠٠ ق.م. (٢) . ومنهم من جعله معاصرا لبانيني ، (٣) وليس بصحيح .

ألف كاتيايانا كتاباً باسم Varttikas (بمعنى الشرح) ، وهو منظوم يعد تعليقاً على كتاب بانيني(٤) . وحجم الكتاب صغير ، إذ لا يتجاوز ثلث كتاب بانيني ، ويغلب عليه جانب النقد والتقويم إلى جانب الشرح والتفصيل(٥) .

والمدرسة التي ينتمي إليها كاتيايانا مدرسة نحوية تختلف عن مدرسة بانيني في المصطلحات الفنية وفي طريقة التناول ، ولهذا لم يتعاطف هذا المؤلف مع بانيني كثيراً . بالإضافة إلى أن اختلاف الفترة الزمنية التي عاش فيها المؤلفان أدى إلى بعض التطورات والتغيرات في شكل اللغة (٦) . وعلى هذا فإن بعض ما نجده من خلاف بين الرجلين مرجعه إلى ما دخل اللغة من مادة جديدة نتيجة للتطور اللغوي الطبيعي ، ولذلك كان كاتيايانا حين يبطل قيمة القاعدة البانينية بالنسبة للغة المستعملة في زمانه ومكانه — كان يعطي بديلا عنها كلما أمكنه ذلك (٧) .

---

١) ص ١٩١ Varadachari : A history of the Sanskrit

٢) ص ١ مقدمة Chatterji : Patanjali's Mahabhashya

٣) ص ٢٨ Belvalkar : Systems of Sanskrit Grammar

٤) المرجع السابق ص ١٩١ Varadachari

٥) المرجع السابق ص ١ مقدمة Chatterji

٦) المرجع والصفحة .

٧) انظر Chakravarti في the philosophy ص ٢٩ ، و Misra في The descriptive ص ٢٥

ويفهم من الكلام السابق أن كاتيايانا كان متعصباً ضد بانيني وأنه كان يتحين الفرص للانتقاص منه . ولكن الأستاذ Agrawala يرفض هذا الرأي ويقول : « إن كاتيايانا كان ناقدا لبانيني ولكنه كان كذلك تابعاً. لقد أخضع عمل بانيني للبحث والفحص والتعديل والزيادة كلما كان ذلك ضرورياً ، ولكنه في حالات كثيرة دافع عنه وتبنى رأيه . لقد كتب بروح علمية نقدية وليس بروح مهاجمة متجنية » . كذلك نبه الأستاذ Kielhorn إلى أنه « من الظلم أن نحكم على كاتيايانا بأنه كان يهاجم بانيني ما دام الهدف الذي رمى إليه هو وباتنجالي كان واحداً وهو الشرح والتفسير . وإننا لنجد كثيراً من آراء الرجلين تتفق وتتطابق في مضمونها وإن اختلفت في شكلها(١) .

(٤) باتنجالي Patanjali

تتسع شقة الخلاف بين العلماء في تحديد زمنه اتساعاً كبيراً ؛ إذ وضعه بعضهم في القرن العاشر قبل الميلاد ، وبعضهم في القرن الثاني الميلادي ، وبعضهم في فترة ما بين ٢٥٠ ق.م. و ٦٠ م. (٢) . ولكن الدكتور Bhandarkar ناقش في تفصيل هذه المشكلة ، ودافع في بضع صفحات من Indian Antiquary عن فكرة وضعه في تاريخ متقدم عن هذا وقد قبل الباحثون رأيه ، وعلى هذا فهو يوضع في حوالي ١٥٠ ق.م (٣) . ولعل السر في هذا التفاوت الكبير يرجع إلى أن اسم باتنجالي كان من الأسماء المشهورة التي كثر ترددها في

---

١) ص ٤ ، ٥ Agrawala : India as known to Panini

٢) ص ١ ، ص ٢ Bashyacharay : The age of Patanjali
وقد اختار المؤلف الرأي الأول .

٣) ص ٢٣ Belvalkar : Systems of Sanskrit grammar

التراث السنسكريتي ، وقد حمله أكثر من عالم . وقد عرف فيلسوف هندي بهذا الاسم في القرن العاشر قبل الميلاد ألف كتاباً في قواعد اليوجا باسم Yoga Sutras فمن اعتبر النحوي والفيلسوف شخصاً واحداً وضعه في القرن العاشر ق.م كما فعل Bashyacharya (١) .

وقد ولد باتنجالي في مكان يسمى Ganarda في منطقة كشمير الآن ، واسم أمه Gonika ، وقد لقبه بعضهم Gonardiya نسبة إلى بلده. (٢)

ألف باتنجالي كتاباً في النحو شرح فيه مؤلف بانيني واتخذ فيه جانب الدفاع عنه والانتصار له . ويمتاز هذا الكتاب بأسلوبه السهل الحي الذي لا يجارى ، والذي لم يسبق له مثيل في تاريخ النحو السنسكريتي(٣) . وقد اختار له المؤلف اسم Mahabhashya (بمعنى العمل الشامل أو الشرح الكبير) . وقد احتل مكاناً فريداً في التراث النحوي العالمي وأطلق عليه العلماء اسم « الشرح العظيم » ، ووصفه بعضهم بأنه « آخر درجة في المحاكم الاستئنافية في كل مسائل النحو »(٤) وبأنه « عمل عظيم في كل شيء ، في الحجم ، وفي المهارة العلمية ، وفي تفوقه وقوته » (٥) .

وقد بدأ باتنجالي كتابه بالتعريف بطبيعة العلم ومجالاته . وقد وصف هذا العلم بأنه علم الكلمات . ثم تساءل عن نوع الكلمات الذي سيندرج تحت هذا العلم ، وأجاب بأنه يشمل كلا النوعين : الكلام الديني Vedic والكلام

---

١) Bashyacharya المرجع والصفحة .
٢) المرجع والصفحة .
٣) Varadachari : A history of the Sanskrit ص ١٩١
٤) Chatterji : Patanjali's Mahabhashya مقدمة المحقق ص ١
٥) المرجع والصفحة .

العامي . ثم عرّف الكلمة بأنها الشيء الذي يجلب إلينا معارف الآخرين أو بأنها الصوت الذي يحمل معنى . وذكر فائدة هذا العلم وهو حفظ نصوص الـ Vedas ، وتمكين الشخص من التعبير عن نفسه بأيسر سبيل ، ومن معرفة الكلمات من أقصر طريق(١) . ثم أخذ بعد ذلك في التعليق على عمل بانيني متناولا كل قاعدة كلمة كلمة بالشرح والتحليل ، مع الاحتفاظ بأصل القاعدة(٢) .

وباعتبار باتنجالي تلميذاً مخلصاً وتابعاً وفيا لبانيني لم يعجبه ما وجه للأخير من نقد على يد كاتيايانا (انظر ما سبق تحت هذا الاسم) ولذا دافع عنه قدر وسعه وفسر قواعده بشكل جعلها مرنة(٣) .

وقد احتوى عمل باتنجالي بعض قواعد لم يذكرها بانيني ، بالإضافة إلى أن نحو ثلث قواعد بانيني قد أغفلت الإشارة إليها كلية ربما لأن قواعدها واضحة(٤)

ويعتبر الدكتور Chakravarti باتنجالي « واضعا لمنهج جديد في دراسة النحو ، حيث عالجه من وجهة النظر المنطقية محاولا دائماً أن يستخلص النظرية التي تربط القواعد . وبذلك صار النحو على يديه نظاماً معيناً من الفلسفة » (٥) . واعتبر الباحث السابق كذلك باتنجالي وتلميذه بهارترهاري Bhartrhari مؤسسي فرع « فلسفة النحو » ، وعد ما قدماه أهم مما قدمه أفلاطون وأرسطو لعلم الفلسفة البحت(٦) .

---

١) المرجع السابق ص ١ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ .
٢) المرجع السابق ص ١ ، ٢ مقدمة .
٣) المرجع ص ١ مقدمة .
٤) ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ Weber : The history of Indian literature
٥) ص ٣٠ The philosophy of Sanskrit grammar
٦) المرجع ص ٣٨ .

(٥) أمارا سنها Amara Sinha

هو كاتب بوذي اختلف كالعادة في زمنه على النحو الآتي :

١) كان يعيش في فترة لا تتأخر عن القرن الثالث الميلادي(١) .

٢) عاش بين عامي ٤٠٠ و ٦٠٠ م (٢) .

٣) وضعه Wilson مرة في القرن الخامس الميلادي ومرة في القرن الذي سبق المسيحية (٣) .

٤) وضعه Burrow في الفترة بين ٦٠٠ و ٨٠٠ م (٤) .

٥) وضعه Devasthali قبل القرن الثامن الميلادي (٥) .

ولكن من المؤكد أنه كان يعيش قبل القرن السادس الميلادي حيث توجد ترجمة لكتابه إلى اللغة الصينية ترجع إلى القرن السادس الميلادي (٦) .

وترجع شهرته إلى أنه كتب معجماً للمترادفات في ثلاثة أبواب وألحق به فصلا عن المشترك اللفظي ، وآخر عن الكلمات غير المتصرفة والكلمات المذكرة أو المؤنثة أو المحايدة (٧) . وقد طبع هذا المعجم أكثر من طبعة ؛ منها واحدة بتحقيق H. D. Sharma تحت اسم Namalinganusasana (أي

---

١) ص ٢٠ Goldstucker : Sanskrit & Culture

٢) ص ١٩٩ Varadachari : A history of the Sanskrit

٣) ص ٢٣٠ Weber : The history of Indian...

٤) ص ٥١ Burrow : The Sanskrit language

٥) ص ٣١٨ The history & Cultur of the Indian people

٦) مقدمة Sharma لكتاب أماراسنها Namalinganusasana ص ١٠ .

٧) المرجع السابق ص ١٩٩ : Varadachari

تعليم الأسماء والأجناس = المذكر والمؤنث والمحايد) (١) . وثانية تحمل نفس الاسم بتحقيق وتقديم وترجمة الأستاذين N.G. Sardesai و D. G. Padhye، وثالثة بتحقيق Tiwaree تحت اسم Amara Kosa أخذا من اسم المؤلف (٢) . وقد عرف الكتاب كذلك بأسماء Trikanda (ثلاثة كتب) لأنه يحتوي على ثلاثة كتب ، و Abhidhana (أسماء) أخذا من موضوعه (٣) .

* * *

---

١) ص ٤٥٦ Winternitz : History of Indian Literature

٢) تكتب كذلك : Cosha و Kosha

٣) انظر مقدمة Amara Kosha بقلم Colebrooke ص ٣ .

الفصل الخامس

الدّراسَات الصَوتيَة

لم تنشأ الدراسات الصوتية عند الهنود مستقلة عن غيرها من فروع الدراسات اللغوية ، وإنما وجدت مرتبطة بالنحو ، وعولجت مشاكلها جنباً إلى جنب مع مشاكله ، وكان من ألفوا فيها نحاة قبل أن يكونوا صوتيين . كذلك لم يكن يخصص للمشاكل الصوتية أقسام معينة في كتب النحو ، وإنما كانت تأتي متداخلة مع بحوث النحو ، وإن اعتاد النحاة فيما بعد فتح كتبهم بالحديث عن الألفباء الهندية ، والمشاكل النطقية ، ونحو ذلك (١) .

ولكن حدث فيما بعد أن انفصل علم الأصوات عن علم النحو وظهرت فيه مؤلفات كاملة مستقلة . وأول ما يعرف في هذا الخصوص كتاب في الأصوات تنسبه المراجع القديمة لبانيني النحوي، وإن كان من المرجح أن يكون مؤلفه أخاً أصغر له يسمى Pingala (٢) . وقد ظهر مختصر لأصوات بانيني قبل الفتح الإسلامي للهند بقليل ولكنه لم يشر إلى اسم بانيني . ويرى بعضهم أنه من المحتمل أن يكون هذا المختصر قد ألف بعد الفتح الإسلامي للهند (٣) .

---

١) انظر ص ١٠ ، ١١ Burvell : On the Aindra School

٢) أشير في هذا الكتاب الى اسم بانيني في المقدمة والخاتمة .
انظر Varma في Ctirical ص ٩ .

٣) المرجع السابق ص ٥ ، ٩ .

وقد كانت الدراسة الصوتية في أول أمرها تخدم غرضاً دينياً يتمثل في الحفاظ على نصوص الـ Vedas ، ونطق كل كلمة مستعملة في الكتب المقدسة على وجه الدقة ، وإرشاد الناس إلى كيفية ترتيلها في المواقف المعينة . يقول باتنجالي : « إن الشخص الذي ينطق نصوص الـ Veda بطريقة صحيحة كلمة كلمة ، ونبرا نبرا ، ومقطعاً مقطعاً حقيق بأن يقف في مقام الفداء أمام الرب ويقدم القرابين له »(١) . كذلك نجد بانيني يخصص القاعدة الرابعة والثلاثين وما بعدها لأحكام تمس طريقة النطق والإلقاء في مواقف التضحية للرب Sacrificial works حيث يوجد اطراد أو وحدة في النغم monotony فيما عدا بعض مواقف معينة تستخدم فيها درجات النبر الثلاثة . كما تعرض كذلك لطريقة الإلقاء فيما يتعلق بقارىء الـ Veda. وقد خصص القاعدة السادسة والثلاثين لأحكام صوتية تتعلق بالـ Veda ؛ خاصة ، والقاعدة السابعة والثلاثين لأحكام تتعلق بالتراتيل الدينية hymns (٢) . ولذلك عدت المرحلة الأولى لتلك الدراسة مرحلة تعليمية تهدف إلى تحسين النطق والتدريب على مواقفه المختلفة . وقد ضمنت هذه الدروس الصوتية التعليمية للنطق الصحيح لـ Vedas ما سمي بالـ Pratisakhyas ، وإن كان يشك فيما إذا كان أي من هذه الدراسات التي وصلت إلينا في هذا المجال يرجع إلى عصر أسبق من عصر بانيني (٣) .

ثم تطورت هذه الدراسة وأصبحت تعالج موضوعات من علم الأصوات العام general phonetics ؛ منتقلة بذلك من ملاحظات تعليمية إلى نظريات صوتية عامة (٤) .

---

١) ص ١٨ Patanjali's Mahabhashya وانظر : Sanskrit language : ص ٤٧ ، ٤٨ .

٢) ص ٨٨ ، ٨٩ The Ashtadhyayi

٣) ص ٤٨ Burro : The Sanskrit language

٤) ص ٥ Varma : Critical studies

ويرجع تاريخ الدراسات الصوتية عند الهنود إلى حوالي ٧٠٠ — ٨٠٠ قم ، والفترة التاريخية للمؤلفات المفقودة منها ترجع إلى المدة من ٨٠٠ — ٥٠٠ ق.م. أما الفترة التاريخية للمؤلفات الموجودة فترجع إلى المدة من ٥٠٠ — ١٥٠ قم. وقد استطاع الدكتور Varma أن يجمع خمسين كتاباً هندياً قديماً في الأصوات منها ٣١ كتاباً مطبوعاً ، و ١٩ مخطوطاً وأقام دراسة على هذه المؤلفات الخمسين(١) .

وقد قدم نحاة الهنود نصائح عامة للقارىء كي يتمكن من تصحيح نطقه ، ووضعوا شروطاً لجودة القراءة تتمثل في صحة أعضاء النطق ، وسلامة الشفتين والأسنان ، وصفاء الحنجرة ، ثم هدوء المزاج ، وعدم الاضطراب ، والتباعد عن حذف الأصوات ، والمبالغة في النبر ، والخطأ في التنغيم ، وأخيراً التخلص من بعض العادات الكلامية القبيحة ، وتمييز بداية الحديث من نهايته (٢) .

كما كانوا أحياناً — بقصد التقريب — يعقدون مشابهات بين الأصوات المختلفة ، والأشياء الموجودة في الطبيعة ؛ كتشبيههم الأصوات الساكنة بالليالي ، والعلل بالأيام . أو الساكنة بالجسم والعلل بالروح ، وتشبيههم الأصوات الاحتكاكية بالنَفَس ، والانفجارية بالعظم ، والعلة بالنخاع ، وأنصاف العلة باللحم والدم وغير ذلك (٣) .

وفيما عدا ذلك يمكن أن يقال إن دراسة النحاة الهنود للأصوات لم تكن مجرد ظنون وأوهام ، وإنما كانت ملاحظات صائبة راسخة في الجملة ، وكانت أشبه بالأبحاث التجريبية التي تعتمد على الملاحظة الدقيقة ، وإجراء

---

١) Critical studies in the phonetic observations of Indian grammarians ص ٢٩ .

٢) المرجع السابق ص ١٠ ، ١١ .

٣) المرجع السابق ص ٣ ، ٤ .

التجارب ، ولذلك ظلت لها قيمتها حتى الآن رغم تطور وسائل البحث الحديث، واستخدام الأجهزة الدقيقة في التسجيل والتحليل .

وقد تنوعت الدراسات الصوتية عند الهنود ، وشملت مختلف جوانب العلم . ولهذا لا بد أن نعرض صورة موجزة لأهم تلك المنجزات :

الصوت المفرد :

فيما يتعلق بالصوت المفرد توصل الهنود إلى الحقائق الآتية :

١ ـ قسموا الأصوات إلى علة vowels ، وأنصاف علة semi-vowels ، وساكنة consonants . وقد قسموا العلة إلى بسيطة وإلى مركبة diphthongs ، كما قسموا السواكن بحسب مخارجها إلى حلقية guttural ، وغارية (حنكية) palatal ، ولسانية lingual ، وأسنانية detnal ، وشفوية labial (١) .

ويختلف تقسيم بانيني عن هذا اختلافاً يسيراً حيث قسم مخارج الأصوات إلى : الحلق throat ، والحنك palate ، والرأس head ، والأسنان teeth ، والشفتين lips ، والأنف nose ، وقد توصل بانيني كذلك إلى الحقيقة أن بعض الأصوات تطرأ لها صفة الأنفية nasalization وذلك مثل أصوات العلة إذا تسرب الهواء معها من الأنف (٢) .

ويلاحظ أن هذا الترتيب يسير من الخلف إلى الأمام ، أي يصنف مخارج الأصوات بطريقة عكسية للطريقة التي سارت عليها الأبجدية الصوتية الدولية International Phonetic Alphabet

---

١) انظر بحث : « الألفباء الهندية » فيما سبق .

٢) The Ashtathyayi ص ٩ ، ١٠ .

٢ ــ توصل الهنود إلى أثر القفل في إنتاج الأصوات الانفجارية أو الوقفية ، والفتح في إنتاج أصوات العلة . كما تحدثوا عن أنصاف العلل ، وعن الأصوات الاحتكاكية التي يصحبها تضييق (١) . وقد سموا الأصوات الاحتكاكية باسم hot steaming ، ربما بسبب ما تحدثه من صوت يشبه صوت تسرب البخار . كما ميزوا أصوات الصفير sibilants من غيرها ، وأشاروا إليها تحت اسم Wistling (٢) .

وقد صرح بانيني بأن إنتاج الصوت يتم إما عن طريق قفل المجرى ، بأن يحدث اتصال كامل لاعضاء النطق ، أو عن طريق حدوث اتصال بسيط كما يحدث مع أنصاف العلل ، أو عن طريق الفتح الكامل ، كما يحدث مع أصوات العلة ، أو عن طريق الفتح البسيط أو التضييق (٣) .

٣ ــ ذكر بانيني أن الأصوات المتجانسة لا بد أن يتحقق فيها شرطان :

أ) اتحاد مكان النطق .

ب) اتحاد كيفية النطق .

فإذا فقد أحد الشرطين لا يوجد التجانس . وأخذ بعد ذلك يفرق بين الأصوات التي تنطق من مكان واحد ، ولكن بكيفيات مختلفة ، والتي تنطق بكيفية واحدة ولكن من أماكن مختلفة . وكان حريصاً على أن يميز تمييزاً قاطعاً بين العلل والسواكن فذكر ما نصه : « لا تجانس بين العلل والسواكن ، حتى لو وجد اتحاد في مكان النطق وفي مقدار الجهد » (٤) .

---

١) Allen في Phonetics ص ٢٢ .

٢) Allen المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

٣) بانيني : المرجع السابق ص ١١ .

٤) بانيني : المرجع السابق ص ١٢ ، ١٣ .

٤ – تحدث الهنود عن كيفية تسرب الهواء من التجويف الحنجري ، وذكروا أنه إذا فتح ما بين الوترين الصوتيين glottis ينتج النَفَس ، وإذا ضيق ما بينهما ينتج الصوت . وصرحوا بأن النَفَس breath يحدث في حالة الأصوات الساكنة المهموسة . أما الصوت voice فيحدث في حالة السواكن المجهورة أو العلل (١) .

وقد اعتبر Robins أن التحديد الصحيح لوظيفة التجويف الحنجري (فتحة ما بين الوترين الصوتيين) في إحداث الجهر والهمس يعد بحق واحداً من أعظم الانتصارات الصوتية للهنود القدماء . وذكر أن أقرب التصورات من الصحة لهذه الوظيفة قد توصل إليه الأوربيون في القرن السابع عشر (٢) .

٥ – يبدو أن الصوتيين الهنود في دراستهم الوصفية كانوا يصدرون عن تصور فطري للأسس الفونيمية (راجع فصل الألفباء الهندية) . حقاً إنهم لم يناقشوا في مؤلفاتهم أي تصور لما يمكن أن يسمى فونيماً من الناحية التجريدية النظرية ، ولكن بعض أبحاثهم يمكن أن يعتبر سائراً في نفس الاتجاه الذي تسير فيه بعض التفسيرات الحديثة للفونيم (٣) .

٦ – ميزوا صوت الـ a عن غيره من أصوات العلة ، قائلين إنه صوت محايد neutral ، أو أن العضو الذي يتدخل في نطقه هو كل الفم the whole mouth (٤). كما ميزوا بين درجات من الانفتاح تصاحب نطق العلل ؛ فدرجة الانفتاح مع a أكثر منها مع e أو o (٥) .

---

١) Allen : المرجع السابق ص ٣٤ ، و Saaran في A Critical Study ص ٣٠٣ .
٢) Robins في A short history ص ١٤٢ .
٣) المرجع السابق ص ١٤٣ .
٤) Allen المرجع السابق ص ٥٩ .
٥) Saaran المرجع السابق ص ٣٠٨ .

٧ ـ عد الهنود صوت الـ h وسطا بين المجهور والمهموس . وذكروا أنه يصحبه النَفَس والصوت معاً . وشرحوا ذلك بأنه حينما تكون فتحة ما بين الوترين الصوتيين في وضع وسط ينتج صوت الـ h . وهناك أدلة كثيرة ترجح أن هذا الصوت كان مجهوراً Voiced في السنسكريتية (١) .

٨ ـ ذكر الهنود أن السواكن لا تستقل بنفسها ، في حين تستقل العلل (٢) . وهذا يفسر لماذا حرصوا في ألفبائهم على أن يقرنوا كل صوت ساكن بالعلة a .

٩ ـ وضع الهنود مقاييس لكمية الصوت على النحو الآتي :

أ ـ الأصوات إما قصيرة short ، أو طويلة long ، أو طويلة جدا overlong ، على حسب الوقت الذي تستغرقه .

ب ـ الصوت البشري ثلاثة أنواع : سريع ومتوسط وبطيء . ونسبة الاستمرارية بين الصوتين المتوسط والسريع ١٢ : ٩ ونسبة البطيء إلى المتوسط ١٦ : ١٢ . وهناك آراء أخرى تحدد النسبة على أنها ٥ : ٤ : ٣ ، أو ٢٥ : ٢٠ : ١٦ ، أو ٣ : ٢ : ١ .

جـ ـ أقل درجة لقياس الكم تسمى anu . وقد قالوا إنها دقيقة جدا too delicate ، وبذا يصعب على الأذن المجردة استقبالها . ويليها درجة يسهل استقبالها وتقدر بـ ٢ anus ، وتسمى كذلك نصف مورا half a mora . وهذه كمية الساكن ـ على حسب رأي معظم النحويين الهنود . ولكن قال بعضهم إن كمية الساكن مورا كاملة ، وقال بعضهم بأن كمية الساكن تقل فتصبح ¼ مورا إذا تبعه ساكن آخر .

د ـ تقاس كمية العلة بثلاث درجات : درجة الـ Paramanu ؛ أو

---

١) Allen : المرجع السابق ص ٣٤ ، ٣٥ .
٢) Saaran : المرجع السابق والصفحة .

الـ mora ، وقد سماها بانيني matra . وقد شبهها الهنود بطرفة العين أو وميض البرق أو فرقعة الإصبع . وهذه كمية العلة القصيرة .

ودرجة الـ two-mora وقد شبهها الهنود بنعيق الغراب . وهي كمية العلة الطويلة .

ودرجة الـ three-mora وقد شبهوها بتغريد الطاووس . وهي كمية العلة الطويلة جداً .

وبعضهم قسم العلة إلى قصيرة short ، ونصف طويلة half-long ، طويلة long ، وفائقة الطول ultra-long (١)

١٠ — تحدث الهنود كذلك عن إبدال الأصوات بعضها من بعض . وقد خصص بانيني لذلك عدة قواعد تبدأ من رقم ٥٠ . وشرط لكي يتم الإبدال أن يوجد نوع من التقارب بين الصوتين (٢) .

١١ — كذلك تحدثوا عن قواعد التضعيف doubling ، وقسموا الأصوات الساكنة إلى ما يمكن أن يضعف (وعدده ٢١ صوتاً) ومالا يمكن أن يضعف (وعدده ١٢ صوتاً) .

وذكر بانيني أن التضعيف لا يقع بعد العلة الطويل . وذكر غيره أنه في حالة حدوثه إما أن تنقص كمية العلة أو يخفض التضعيف (٣) .

---

١) Varma في Critical studies the Ashtadhyayi of Panini ص ٣ و ص ١٧٠ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ . وإذا أردت مزيداً من التفصيلات فارجع إلى ما بين ص ١٧٠ — ١٨٣ .

٢) بانيني المرجع السابق ص ٣٨ وما بعدها .

٣) Varma : المرجع السابق ص ٩٩ وما بعدها و ١١٣ وما بعدها و ١١٦ وما بعدها .

المقطع :

تحدث الهنود في تفصيل مثير للدهشة عن قواعد المقطع ، وكيفية بنائه وتقسيمه ، وطرق قياسه ، وغير ذلك مما يشغل عشرات الصفحات في كتبهم (١) وقد حاولنا بقدر الإمكان أن نبسط هذه الأفكار ، وتبتعد عن التفصيلات الدقيقة ، ولكن بدون أن نخل بالصورة .

١ ــ أكثر الكلمات التي استعملها الهنود لتدل على المقطع هي كلمة Aksara التي شرحها أحدهم بأنها هي تلك الوحدة التي تستقل بنفسها . وقد قالوا إن أهم أجزاء المقطع هو العلة ، وذلك بناء على ما قرروه من أن الساكن لا يمكن أن يقف بنفسه وإنما يعتمد دائماً على العلة ، في حين أن العلة يمكن أن تستقل بنفسها . يقول باتنجالي « إن الساكن لا يمكن أن ينطق بدون العلة » . والكلمة السنسكريتية للعلة هي svara وهي مركبة من كلمتي sva-ra اللتين تعنيان حرفياً « القائم بذاته » . ولذا شبه بعضهم العلة بالسلطان القوي ، والساكن بالحاكم الضعيف الذي يخضع لنفوذ الأول ، وشبه بعضهم السواكن والعلل بالعِقد . فالسواكن هي الخرزات ، والعلل هي الخيط الذي يربطها . ولم يشر الهنود إلى إمكانية تشكيل الساكن للمقطع ، ربما نتيجة ملاحظة خاصة للغتهم . ولكن لا شك أن الطبيعة المقطعية للساكنين r و l قد أثارت انتباههم ولكنهم تصور وهما على أنهما علتان يمكن لأيهما أن يشكل مقطعاً (٢).

٢ ــ وضع الهنود قواعد للتقسيم المقطعي تتلخص فيما يأتي :

أ ــ إذا وقع الساكن قبل علة فإنه يتبع العلة التي تليه سواء كان الساكن أولا أو وسطاً . فمثلا كلمة dana تقسم إلى da-na .

---

١) انظر على سبيل المثال ما كتبه Varma عن المقطع في الصفحات من ٥٥ إلى ٩٤ من كتابه. Crit cal Studies

٢) انظر Varma في Critical ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ و Allen في Phonetics ص ٨٠ .

ب ـ إذا وقع الساكن بين علتين intervocalic consonant فإنه يلحق بالعلة التي تليه . فكلمة مثل apa على سبيل المثال تقسم إلى a-pa وليس ap-a . ويبدو أن هذا الإلحاق كان لمجرد التيسير وتوحيد الاصطلاح ؛ لأنه من الصعب حتى في الدراسة الحديثة الحكم بإلحاق مثل هذا الساكن بإحدى العلتين لأن نصفه يتبع الأول ونصفه يتبع الثاني (١) .

جـ ـ الساكن المتطرف يتبع العلة السابقة . والسبب في ذلك أن كل السواكن المتطرفة في السنسكريتية أصوات انفجارية كانت تنطق في تهاون ، حتى إنها قد اختفت في بعض اللهجات . ولا يمكن أن يتوقع في مثل هذه الحالة أن يشكل أحدها مقطعاً مستقلا (٢) .

د ـ بخصوص مجموعة السواكن Consonant-group يلحق أول عضو فيها بالعلة السابقة . وعلى هذا فكلمة مثل pitre تقسم إلى pit-re وليس الى pi/tre (٣) .

هـ ـ بخصوص الساكن المضعف doubled consonant يختلف النحاة الهنود ؛ فبعضهم يلحق الساكن الأول بالمقطع السابق ويخير بالنسبة للساكن الثاني بين أن يلحق بالسابق أو اللاحق . وعلى هذا فكلمة مثل attva يصح أن تلحق تاءها الثانية بالمقطع الأول فتأخذ نصيبها من النبر القوي ، ويصح بالمقطع الثاني فتأخذ نصيبها من النبر الضعيف . ولكن يرى بعض آخر أن الإلحاق يتوقف على ما إذا كان المضعف متبوعا بساكن Consonant أو نصف علة semi-vomel . ففي الحالة الأولى يتبع المضعف المقطع السابق مثل aggnim

---

١) Varma المرجع السابق ص ٦١ ، ٦٢ و Allen المرجع السابق ص ٨٢ .
٢) Varma المرجع السابق ص ٦٢ .
٣) Varma المرجع السابق ص ٦٢ و Allen المرجع السابق ص ٨٢ .

التي تقسم إلى agg-nim . وفي الحالة الثانية يتبع أول المضعفين فقط المقطع السابق مثل parssvam التي تقسم إلى pars-svam . (١)

و ـ وهناك قواعد أخرى تفصيلية تحكم التجمعات الآتية :

راء + انفجاري مضعف (٢) .

انفجاري + احتكاكي (٣) .

ساكن + نصف علة (٤) .

نصف علة + نصف علة (٥) . وغير ذلك .

٣ ـ كذلك وضع الهنود مقاييس لتقدير كمية المقطع على النحو التالي :

أ) العلة القصيرة تكوّن مقطعاً قصيرا ، ولكن علة قصيرة مع ساكن يكونان مقطعا أطول وإن بقي يسمى مقطعا قصيرا .

ب) العلة الطويلة تكوّن مقطعا طويلا ولكن علة طويلة مع ساكن يكونان مقطعا أطول .

جـ) العلة القصيرة قبل مجموع ساكن Consonont - group تكوّن مقطعا طويلا (٦) .

د) القاعدة الأساسية في الكمية المقطعية هي مدى الاستمرارية duration. وقد أشار إلى هذا Rg Prat الذي قال : « إن العلة الطويلة مقطع

---

١) Varma المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .
٢) المرجع السابق ص ٦٩ وما بعدها .
٣) المرجع السابق ص ٧١ وما بعدها .
٤) المرجع السابق ص ٧٥ وما بعدها .
٥) المرجع السابق ص ٧٧ وما بعدها .
٦) المرجع السابق ص ٩٤ . و Allen المرجع السابق ص ٨٥ ، ٨٦ .

طويل ، ولكن المقطع يصير أطول إذا تلاه ساكن » . والعبرة في الطول والقصر ليست الكتابة ولكن النطق ، وهذا هو السر في أن النحاة الهنود قد قسموا كلمة تكتب عادة Putrah إلى : put-trah مما يعني أن كمية الـ t كانت طويلة لدرجة سمحت بتقسيمها (١) .

هـ) ولقياس المقطع قالوا إن المقطع القصير يساوي mora واحدة ، أما الطويل فيساوي ٢ mora (٢).

٤ ــ صرح النحاة الهنود بأن هناك اتجاها في السنسكريتية إلى قفل المقطع الأول في الكلمة ، وعلى هذا تضعف بعض الأصوات لتحقيق هذا الغرض . فكلمة مثل Putram لا تقسم إلى pu-tram وإنما إما إلى put-tram أو إلى putt-ram (٣) .

النبر :

يصرح Burrow أن التفصيلات الكاملة للقواعد التي وضعها الهنود للنبر في لغتهم القديمة والطرق العديدة التي اتبعوها لتوضيح النبر ــ من المسائل المعقدة (٤) . ولكن بصورة مبسطة جدا يمكننا أن نذكر الحقائق الآتية :

١) النبر ليس من خصائص السواكن وإنما من خصائص العلل . ويرى باتنجالي أن الساكن قد يشارك العلة في النبر إذا جاورها ، فتنتقل إليه خاصتها، تماما كما يحدث لقطعة قماش بيضاء حين توضع بين قطعتين حمراوين فإن البياض يكتسب لون الحمرة منهما (٥) .

---

١) Varma ص ٨٨ .
٢) المرجع السابق ص ٨٩ .
٣) المرجع السابق ص ٦٣ .
٤) The Sanskrit language ص ١١٢
٥) Varma المرجع السابق ص ٥٦ .

٢) العلة التي تتحمل نغمة عالية تسمى منبورة .

٣) للنبر ثلاث درجات (١) .

٤) كل كلمة لها نبر واحد يختلف موضعه من كلمة إلى كلمة .

٥) أي مقطع في الكلمة يمكن أن يتحمل النبر وإن كان من الصعب تحديد المقطع الذي يأخذ النبر .

٦) هناك كلمات لا نبر لها مثل الأدوات والضمائر . وبالإضافة إلى هذا قد يحذف النبر في مواقف معينة (٢) .

تعليق :

على الرغم من تقديرنا العظيم لجهد الهنود في مجال الأصوات وأهمية الحقائق التي توصلوا إليها في هذا الميدان رغم قلة وسائل البحث وصعوبته في تلك الآونة فإن هناك بعض نقاط قد يختلف فيها علم اللغة الحديث معهم .

١ ــ من ذلك أن بانيني ذكر من بين مخارج الأصوات الرأس head . ولا ندري أي صوت هذا الذي يخرج من الرأس ؟

٢ ــ ما قرره الهنود من أن العلة هي جوهر المقطع ليس صحيحا على إطلاقه ، بعد أن أصبح معروفا أن الساكن أو مجموعة السواكن يمكن أن تشكل مقطعا مستقلا . وربما عنى الهنود بهذا الحكم لغتهم هم ولم يقصدوا وضع قانون عام (٣) .

---

١) The Ashtadhyayi ص ٨٥ .

٢) انظر Burrow في The Sanskrit language ص ١١٢ ، ١١٣ .
ولمزيد تفصيلات عن النبر ومواضعه كما جاء في مؤلفات النحاة السنسكريتيين انظر :
Uhlenbeck في A manual of Sanskrit phonetics ص ١٠٩ وما بعدها
و Varma في Critical studies ص ١٥٦ وما بعدها .

٣) انظر Varma ص ٥٦ ، ٥٧ .

٣ ــ ما قاله الهنود من أن السواكن لا تستقل بنفسها ليس حكما عاما ينطبق على كل اللغات ؛ لأن هناك لغات لا تحتوي بعض كلماتها إلا على سواكن فقط مثل tz في الصينية . وحتى في الإنجليزية كلمة from تصبح حين تنطق بسرعة frm (١) .

٤ ــ المقياس الذي وضعه الهنود لقياس المقطع (انظر رقم ٣هـ فيما سبق) ليس دقيقا . فتبعا له يكون للمقطع المكون من علة قصيرة + ساكن مورا واحدة ، وهو لا يتفق مع نظريتهم في كمية الأصوات التي تعطى العلة القصيرة مورا كاملة وتعطي الساكن نصف مورا أو مورا على اختلاف الآراء .

ولكن هذه وأمثالها في الحقيقة هنات صغيرة لا تقاس إلى ما حققه الهنود من نتائج رائعة . وإذا كان whitney يعمل في نهاية القرن التاسع عشر وتحت يده كل وسائل البحث الحديثة قد اعترف بأن ما قد يقع فيه من أخطاء لا بد أن يؤخذ بقدر معقول من الرفق والتسامح ، نظرا لجدة البحث وصعوبة الحقل ؛ فما بالك بموقف النحاة الهنود الذين عملوا بقرون قبل المسيحية ، وبدون وسائل بحث حديثة . إنهم لم يكونوا فقط روادا ولكن أثبتوا أيضا أنهم أقدم أساتذة العالم (٢) .

ويكفيهم فخرا أن تكون جهودهم الصوتية هي الأساس الذي بنى عليه علماء الأصوات المحدثون . يقول Allen : « إن الاتصال بين الهنود القدماء والمدارس الغربية الحديثة في دراسة علم اللغة أشد وأوثق في مجال الأصوات عنه في مجال النحو » . ويعترف Firth في مقالة كتبها عن « المدرسة الإنجليزية لعلـــم

١) انظر Saaran ص ٣٠٨ و ٣٠٩ .
٢) انظر The Sanskrit Dhatupathas ص ٢٥٣ .

الأصوات » بأنه لولا المعلومات التي قدمها W. Jones عن النحاة والصوتيين الهنود ما كان يمكن أن تنشأ مدرسة صوتية إنجليزية في القرن التاسع عشر . واعترف Lepsius بأنه أخذ التفرقة بين الصوت المهموس والصوت المجهور من النحاة السنسكريتيين (١) . ويقول Robins : « إن ما يستحق التسجيل حقا بالنسبة للدراسات الصوتية الهندية هو تفوقها الواضح في النظرية والتطبيق ، إذا قورنت بأي دراسة تمت في الغرب أو في أي مكان آخر قبل الاستفادة من أبحاث الهنود (٢) . وعقب الدكتور Varma على جهود النحاة في مجال الأصوات بقوله : إن دراستنا للصوتيين الهنود كشفت عما يأتي :

أ ـ دقة الملاحظات التي أبدوها . وإذا كانت الهند قد دعيت بلد الأحلام والحيل ، فقد أعطتنا الدراسة السابقة استثناء واحدا على الأقل ، وأعني بذلك الملاحظات الصوتية للنحاة الهنود .

ب ـ أن بحوث الهنود في الكمية وفي التضعيف قد أثبتت قوة ملاحظاتهم ، وواقعية المادة التي حللوها . ولكن ما هو أكثر إثارة من هذا هو أهمية الحقائق التي اهتدوا إليها في المجالات المختلفة للأصوات .

جـ ـ لقد ترك الهنود قواعد راسخة ودراسات وصفية صوتية مستفيضة .

د ـ يقدم لنا الدرس الصوتي عند الهنود حلولا لبعض المشاكل اللغوية الحديثة (٣) .

---

١) Allen : المرجع السابق ص ٣ ، ٤ .

٢) Robins : A short history ص ١٤١ .

٣) Varma في Critcal Studies ص ١٨٨ .

وأخيرا نسجل النقطتين الآتيتين :

١ ـ أن اهتمام الهنود لم يقف عند حد علم الأصوات النطقي ، وإنما شمل كذلك الجوانب الفسيولوجية والسمعية لعلم الأصوات (١) .

٢ ـ أن تقدم الأبحاث الصوتية أدى إلى نشوء علم الاشتقاق عندهم ، وإلى نضجه . لأن هذا العلم يقوم عادة على القوانين الصوتية ، كما سنوضح في البحث التالي .

---

١) انظر The Nighantu : Sarup ص ٥٥ .

الفصل السادس

علم الاشتقاق

كما لمع اسم « بانيني » في النحو رغم سبقه بنحاة كثيرين لمع اسم « ياسكا » في الاشتقاق رغم سبقه باشتقاقيين كثيرين . والسر في هذا يرجع إلى أن كل الأعمال الهندية في علم الاشتقاق قبل ياسكا قد فقدت . وقد أشار ياسكا نفسه في كتابه الـ Nirukta إلى كثير من سابقيه واقتبس منهم بعض أفكارهم (١) . وأقدم الأسماء التي حفظتها المصادر الهندية ونسبت إلى أصحابهم رأيا في الاشتقاق هو اسم Sakatayana الذي أشار إليه كل من بانيني وياسكا . وقد كان هذا العالم يتطرف في نظريته في الاشتقاق وينادي بأن كل الصيغ غير الفعلية مشتقة من جذور فعلية (٢) . وكان يعاصره عالم آخر اسمه Gargya — وقد أشار إليه ياسكا أيضا — لم يرتض هذه الفكرة ، وكان من رأيه أن بعض الأسماء لا يمكن ردها إلى جذور فعلية . (٣) وقد كان بانيني من أصحاب هذا الرأي لأنه قسم الكلمات إلى نوع متصرف derivable يمكن الاهتداء إلى اشتقاقه، ونوع جامد underivable لا يمكن إخضاعه لأي قاعدة اشتقاقية (٤).

---

١) ص ١ Bhattacharya : Yaska's Nirukta

٢) ص ١٤ Misra : The descriptive technique

٣) Burrow في The Sanskrit ص ٤٨
و Chakravarti في The philosophy ص ٢٥ .

٤) Chakravarti في The linguistic ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ . وانظر كذلك ص ٦٥.

ويبدو أنه كان هناك فريق آخر ينكر الاشتقاق إنكارا تاما ، ويرى أن كل كلمة قائمة بذاتها ومنفردة ، وأن أي محاولة لربط الكلمات عملية صناعية (١).

ولكن ياسكا تبنى نظرية ساكاتايانا وبنى عليها تحليلاته الاشتقاقية (٢) ، وأدار عليها كتابه النيروكتا . ونسي الناس ساكاتايانا وغيره بعد أن ضاعت مؤلفاتهم وأصبح ياسكا – في نظر الناس – يحتل مكان الريادة ، رغم أنه ليس رائدا ، وينسب إليه تأسيس علم الاشتقاق ، رغم أنه ليس المؤسس . يقول Sarup : «إذا أخذنا في الاعتبار الشرق والغرب معا فإن ياسكا هو أول كاتب في الاشتقاق ، وهو أول شخص ينظر إليه على أنه علم مستقل » (٣) . ويقول Belvalkar : « وقد كان ياسكا بكل تأكيد مؤسس النظرية بأن كل اسم مشتق من أصل فعلي . وقد دافع عنها ضد ما وجه إليها من اعتراضات (٤) .

وما أظن أن الهند تخسر كثيرا إذا ما سلبنا الريادة في هذا الفرع عن ياسكا فستذهب إلى هندي آخر سواء كان ساكاتايانا أو غيره ، إذ لا يوجد بين أبناء الشعوب الأخرى من ينافسهم عليه أو ينازعهم الريادة فيه . وإذا كان اليونان قد بذلوا جهودا في الاشتقاق ، فإنهم لم ينظروا إليه على أنه علم مستقل ، وإنما على أنه فرع من الفلسفة ، وكان يدرس من وجهة النظر الفلسفية ، فقد كان اهتمامهم الحقيقي موجها إلى « جواهر » الأشياء والأفكار كما تعبر عنها الكلمات (٥) .

وهناك شبه إجماع بين الدارسين على الإشادة بجهود ياسكا في الاشتقاق

---

١) Chakravarti في The philosophy ص ٥٧ .

٢) Chakravarti : المرجع السابق ص ٢٦ .

٣) The Nighantu ص ٥٦ .

٤) Systems of Sanskrit ص ٨ ، ٩ .

٥) Varma في : The etymologies ص ٣ .

وبمساهمته الإيجابيه في إرساء دعائمه وتقنين قواعده . يقول Skold : « إننا يجب أن نبدي إعجابنا بما حوته الـ Nirukta من اشتقاقات كثيرة جيدة وصحيحة » (١) . ويقول Max Muller : « ناقش ياسكا موضوعات الاشتقاق وأصل الكلمات بطريقة لا أعتقد أن أحدا في العصر الحاضر ، مستعينا بكل حقائق علم اللغة المقارن ، يستطيع أن يجاريها أو يقدر على أن يقدم بديلا عنها بطريقة مقنعة أكثر مما فعل ياسكا » (٢) . ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا باحث واحد هو Rajavada الذي يقول في مقدمة طبعته المحققة من الـ Nirukta : « إن النيروكتا لا تستحق كل هذا التقدير ، إنها ليست علما ، ولكنها مسخ لعلم » . ويقول : « إن اشتقاقات ياسكا لم تعتمد على القوانين الصوتية sound - laws » (٣) .

وسنرى فيما بعد مقدار ما في هذا الرأي الأخير من تجن لا مبرر له .

الدواعي لدراسة هذا العلم :

أعلن ياسكا الأسباب التي تدعو إلى دراسة علم الاشتقاق وتتلخص فيما يلي :

١) لا يمكن للمرء أن يفهم نصوص الـ Vedas من غير اعتماد على علم الاشتقاق (٤) .

٢) أن علم الاشتقاق مكمل للنحو . لأن النحو يحلل الجملة إلى كلماتها

---

١) المرجع السابق ص ١١ مقدمة .

٢) مولر : A history of ancient Sanskrit literature. ص ١٤٩ .

٣) Vamra المرجع السابق ص ١١ .

٤) The Nighantu : Sarup ص ١ و Bhattacharya : Yaska's Nirukta ص ٥٦ .

أما الاشتقاق فيحلل الكلمة إلى عناصرها (١) .

٣ ــ بدون معرفة قواعد الاشتقاق يكون تحليل الكلام مستحيلا . لأنه في حالات اللغات التركيبية Synthetic ، مثل السنسكريتية ؛ يعد تحليل الكلمة إلى أجزاء مختلفة مثل الجذر واللاحقة والسابقة ذا أهميـة كبيرة (٢) .

٤) الاشتقاق علم ، ولا بد أن يدرس لذاته ، لأن العلم محمود والجهل مذموم (٣) .

أسس الاشتقاق :

تقوم فكرة الهنود عن الاشتقاق على الأسس الآتية :

١) كل الكلمات ــ كما يقول ياسكا ــ يمكن أن ترد إلى أصولها التي تسمى جذورا roots . وعلى هذا لا يصح أن ييأس الباحث في محاولة الوصول إلى هذه الجذور ؛ ويصف أي كلمة بأنها غير قابلة للاشتقاق (٤) .

٢) كل الأسماء لها أصل فعلي . (٥) .

٣) الوصول إلى أصول الكلمات ــ كما يقول ياسكا ــ يؤدي إلى التمييز بين الجذور واللواحق التشكيلية (٦) .

---

١) Sarup المرجع والصفحة .
٢) Varma المرجع السابق ص ١٥٠ .
٣) Sarup المرجع السابق ص ٥٦ ، ٥٧ .
٤) المرجع السابق ص ٥٧ .
٥) Varma المرجع السابق ص ١٦ .
٦) Chakravarti في The linguistic speculations ص ١٧٨ .

٤) ليس أي من الجذر أو اللاحقة التشكيلية قابلا للاستقلال . « فالكلمة المتميزة » ــ كما يقول باتنجالي ــ عبارة عن صحبة من الجذر واللاحقة ، لأن كل منهما يقتضي الآخر ولا يمكن أن يستقل عنه (١) . وعلى هذا يمكن أن يقال إن الهنود نظروا إلى الجذور على أنها كلمات لها وجود حقيقي وإنما لا على أنها وحدات موجودة نظريا (٢) .

٥) ولكن كيف نعرف الجذر من اللاحقة ؟ يقول باتنجالي إن الأساس في هذا هو ما تلاحظه من تغييرات في شكل الكلمة في تصريفاتها المختلفة . فما ثبت منها ولم يدخله تغيير كان جذرا ، وما تغير كان لاحقة (٣).

٦) الأصول أو الجذور اللغوية لا تقبل التقسيم إلى أجزاء أصغر (٤) .

٧) تدور حول كل جذر مجموعة من الكلمات ، مثل جذر الشجرة الذي يحمل فروعا وثمارا كثيرة (٥) .

٨) يجب ــ كما يقول ياسكا ــ حين التحليل ومحاولة رد الكلمات إلى جذرها الموحد أن يأخذ المرء في الاعتبار ما قد تكون الكلمة قد تعرضت له من تغيرات صوتية نتيجة الحذف أو الزيادة أو الإبدال أو المماثلة أو ما شابه ذلك (٦) .

٩) لا بد ــ كما يقول ياسكا ــ حين يجري الاشتقاق أن يؤخذ المعنى بعين الاعتبار . فإذا كانت معاني الكلمات الواحدة فاشتقاقها لا بد أن يكون

---

١) المرجع السابق ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
٢) Palsule في The Sanskrit Dhatupathas ص ٢٥١ .
٣) Chakravarti المرجع السابق ص ١٨١ ، ١٨٢ .
٤) المرجع السابق ص ٢١٨ .
٥) المرجع والصفحة .
٦) Sarup المرجع السابق ص ٥٧ .

واحدا ، وإلا فإشتقاقها يكون مختلفا . وفي حالة اتفاق المعنى تكفي المشابهة بين الكلمتين في حرف واحد أو مقطع واحد لإجراء الاشتقاق. وينصح ياسكا بوضع الكلمة في سياقها إذا أريد معرفة معناها ليسهل اشتقاقها (١) .

١٠) ليست كل الجذور تتصرف بطريقة واحدة، فبعضها ناقص التصرف ، وبعض الجذور الواردة في الـ Vedas قد ماتت ، وهناك جذور أخرى قد جدت . . وهكذا (٢) .

١١) ربما كانت بعض اللواحق في فترة تاريخية قديمة تستخدم كجذر (٣) .

١٢) كل جذر كان يعد جملة تامة في استعمال الرجل البدائي (٤) . وقد تصور الهنود وجود لغة من الجذور كانت تتكلم في يوم ما . وذلك أن الانسان البدائي كان يشرح نفسه في أصوات قليلة ، ناتجة عن انفعالات داخلية ، ثم نما بناء اللغة عن طريق هذه الوحدات أو الجذور (٥) .

١٣) تعطي الجذور دائما معنى الحدث . ولا يوجد جذر في السنسكريتية يمكن أن يوصف بأنه ذو مدلول مادي (٦) .

١٤) يمكن تلمس بعض الجذور في أصوات الطبيعة أو غيرها . فهناك عدد من الكلمات بني أساسا على صوت محاك للطبيعة ، أو صوت موجود

---

١) المرجع السابق ص ٥٧ ، ٥٨ .

٢) Palsule المرجع السابق ص ٢٥٢ .

٣) Chakravarti في The linguistic speculstions ص ١٨٣ .

٤) المرجع السابق ص ٢٢٠ .

٥) Chakravarti في The linguistic speculstions ص ٦٣ .

٦) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

في الحياة ؛ وذلك مثل كلمة dundubhi بمعنى الطبلة ، وكلمة kitava بمعنى المقامر . وقد شرح ياسكا الكلمة الأخيرة بقوله : لأن المقامر كان معتادا أن يقول للرجل حين يريد خداعه : « kim tavasta »، أي ماذا عندك ؟ كذلك يرى ياسكا أن كلمة kaka بمعنى الغراب قد بنيت محاكاة للصوت ka الذي يحدثه الغراب (١).

أهداف هذه الاشتقاقات :

١) كان الهدف الأساسي من هذه الاشتقاقات هو التحليل وليس الوصول إلى صياغة كلمات جديدة (٢) .

٢) كذلك هدفت هذه الاشتقاقات إلى التمييز بين الكلمات السنسكريتية الخالصة والكلمات الدخيلة . فما خضع للنماذج الاشتقاقية التي ذكروها كان أصيلا وما لم يخضع كان دخيلا (٣) .

٣) إن اعطاء فكرة عن الطرق والأسس المتعلقة بالاشتقاق تخلق في القارىء القدرة على أن يصل بنفسه — على ضوء ما تعلمه من أسس — إلى معاني كلمات الـ Vedas وإلى تحليلها (٤) .

مأخذ على هذه الاشتقاقات :

أهم ما يمكن أن يوجه إلى هذه الأسس من مآخذ يتلخص فيما يأتي :

١) بعض الكلمات لا يمكن ردها إلى جذر أو أصل تحليلي . وعلى هذا فمن

١) المرجع السابق ص ٦٥ ، ٦٦ و Sarup المرجع السابق ص ٦٥ .
٢) Chakravarti في The philosophy ص ٥٦ .
٣) Chakravarti في The linguistic speculations ص ١٧٩ .
٤) Bhattacharya في Yaska's Nirukta ص ٢٦ .

التعسف محاولة قسرها لمسايرة ذلك .

٢) التوسع في تطبيق النظرية ، واستخدام الخيال العجيب أحيانا في رد الكلمات ، حتى الأسماء الجامدة والأعلام ، إلى أصول أو جذور (١).

٣) التعويل على جانب المعنى قد يؤدي إلى نوع من التضليل أو الخداع ؛ لأن هناك كلمات من أصل مشترك تتجه إلى اكتساب معان جديدة تبعدها عن الأخرى ، وهناك كلمات لا رابطة جذرية بينها تتقارب معانيها (٢) .

٤) القول بوجود أصل فعلي للأسماء أدى بياسكا وتابعيه إلى الاكتفاء بربط الاسم بأصل فعلي يتفق معه في الساكن الأول فقط ، مع إغفال سائر حروف الكلمة . وفي هذا من التعسف ما فيه (٣) .

٥) بعض اشتقاقات ياسكا في كتابه تعد من النوع البدائي ، وإن كان عذره في ذلك أنها تحمل خصائص العصر الذي عاش فيه (٤) .

٦) بعض اشتقاقات ياسكا لا تحمل أي سمات للدراسة المقارنة ، أو النظرة التاريخية مما يفقدها قيمتها العلمية (٥) .

٧) لم يكن الاشتقاقيون الهنود موفقين في خلطهم الجذور بالأفعال واعتبارهم كل الجذور فعلية (٦) .

---

١) Chakravarti المرجع السابق ٦٥ .
٢) انظر Sarup المرجع السابق ص ٦٣ .
٣) Varma المرجع السابق ص ١٦ .
٤) المرجع السابق ص ١٢ .
٥) Varma المرجع السابق ص ١٢ .
٦) Chakravarti في The linguistic speculations ص ٢٢٠ .

بين الهنود واليونان :

لم يكن أفلاطون يعترف بالاشتقاق كعلم أو كفرع له أسس منظمة ، ويبدو أنه لم يكن يفطن إلى أن الاشتقاق يجب أن يخضع لقواعد عامة . والفرق الأساسي بين ياسكا وأفلاطون أن الأول ميز بين الجذور واللواحق (أو الزوائد) ، بمعنى أنه ميز بين الأصول والعوامل التشكيلية ، وبالتالي كان قادرا على أن يصل بتحليل الكلمة إلى وحداتها الأولية . أما الأخير فلم يفطن إلى هذه التفرقة ، وبالتالي نظر إلى قواعد الاشتقاق على أنها تخمينية . وربما كان السبب في اهتداء ياسكا دون أفلاطون إلى قواعد الاشتقاق ما هو معروف من أن اللغة السنسكريتية يتضح فيها الجانب التركيبي أكثر من اليونانية ، وبالتالي كان من السهل ملاحظة هذه الخاصة فيها . بالإضافة إلى أن ياسكا قد استفاد من خبرات الأجيال السابقة السابقة عليه ، التي وضعت أسس الاشتقاق قبله بمدة طويلة .

وهناك فرق آخر واضح بين أفلاطون وياسكا . فأفلاطون حاول أن يتتبع أصل الأصوات الكلامية ويردها إلى أصوات الطبيعة ، وكان يرى أن نظرية onomatopocia !! أهم عامل في تشكيل اللغة ، في حين أن ياسكا لم يعط لهذه النظرية إلا أهمية ضئيلة. لأنه كان يدين بنظرية الجذر root - theory التي تحاول تحليل الكلمة إلى عواملها الأساسية (١) .

قيمة اشتقاقات ياسكا :

على الرغم مما سبق أن وجهناه من مآخذ على أسس الاشتقاق عند الهنود — بما فيهم ياسكا — فإن هناك نقاطا هامة في صالح ياسكا لا بد من إبرازها وهي :

---

١) Sarup المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ .

١) أن معظم تفسيرات ياسكا كانت أقرب إلى المنطق واستشفاف روح العلم وبعيدة عن التفسيرات الروحانية (١) .

٢) تتلاءم نظرية ياسكا في الاشتقاق مع طبيعة اللغة السنسكريتية ، موضوع تحليله كما سبق أن أشرنا .

٣) كان ياسكا خبيرا بالقواعد الصوتية وعلى علم تام بالأدب السنسكريتي ، وبآراء من سبقوه من النحاة والاشتقاقيين (٢) .

٤) شهد الأستاذ Varma ، بعد دراسة تفصيلية مستوعبة لاشتقاقات ياسكا بأنه كان « اشتقاقيا عبقريا سبق عصره » (٣) .

٥) أثبت المؤلف السابق أن « اشتقاقات ياسكا قامت على أساس علمي ثابت ، وأنه استطاع أن يهتدي إلى بعض الحقائق الفونولوجية المتعلقة بلغة الـ Vedas » (٤) .

٦) طرح نفس المؤلف سؤالا هاما وهو : هل عمل ياسكا المسمى اشتقاقات يعد اشتقاقات حقيقة ؟ ثم أجاب عليه بقوله : « إن علم الاشتقاق يقوم عادة على القوانين الصوتية . وقد زعم بعضهم أن ياسكا لا يعرف القوانين الصوتية . ولكنني أرى أن الأمر على العكس ، وأن ياسكا اتبع في اشتقاقاته قوانين صوتية وإن لم يذكرها في شكل قوانين . وإنما يمكن للباحث المدقق أن يستخلصها بنفسه . وعلى هذا فإن اشتقاقات ياسكا مؤسسة في عمومها على القوانين الصوتية وهي

---

١) المرجع السابق ص ٥٦ .
٢) Sarup المرجع السابق ص ٥٥ .
٣) Varma المرجع السابق ص ١١ مقدمة
٤) المرجع والصفحة .

تستحق أن تسمى «etymologies» (١) . وبعد ضرب أمثلة كثيرة ومتنوعة انتهى الباحث إلى أن قال : « إن الأسس الصوتية لاشتقاقات ياسكا متجانسة وثابتة ويمكننا أن نتحدث عن هذه الاشتقاقات بوصفها علما » (٢) .

فلا غرابة إذن — ولاشتقاقات ياسكا كل هذه القيمة — أن نجد الاشتقاقيين في أوربا الغربية يعترفون باستفادتهم الكبيرة منها ، في أوائل اشتغالهم بعلم الاشتقاق . وما يزال فيها — كما يقول Skold — أشياء كثيرة يمكن الاستفادة بها حتى الآن (٣) .

دراسات الهنود للجذور السنسكريتية :

لاقت الجذور اهتماما كبيرا من النحاة الهنود ؛ بل أسس معظمهم تحليلاتهم النحوية عليها ، ومنهم بانيني كما سبق أن ذكرنا . وتمثل جزء من اهتمامهم في محاولة حصرها ، كما فعل بانيني الذي أعطى قائمة طويلة شاملة للجذور السنسكريتية ، ووصل بها إلى نحو الألفين (٤) . ولا يعجبن القارىء من ضآلة هذا العدد ؛ فالجذور في السنسكريتية تتكون عادة من مقطع واحد ، ونادرا ما يوجد فيها أصل ذو ثلاثة سواكن ، وإن وجد فعادة ما يكون أحد هذه السواكن مكررا (٥) . وتوجه جزء آخر من اهتمام الهنود إلى محاولة تصنيفها باعتبارات متعددة . فمثلا قسمت الجذور إلى قسمين تبعا لما إذا كانت تحتوي على علة واحدة أو أكثر . وقسمت إلى عشرة أقسام بحسب أشكالها ، وتبعا لما

---

١) المرجع السابق ص ١٠ .
٢) المرجع السابق ص ١٥ ، ١٦ .
٣) The Nirukta ص ٩ مقدمة .
٤) Chakravarti في The linguistic speculations ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .
٥) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

يدخل الأصل الفعلي من تعديلات وتغييرات . وقسمت الجذور كذلك إلى أولية وثانوية (لواحق) ثم قسمت الثانوية إلى أربعة أقسام . . . وهكذا (١) .

ومما ذكروه في هذا المجال أن اللواحق كثيرة ، وليست مشتقة أساسا من كلمات مستقلة ، وإنما هي وحدات صغيرة تشمل تقريبا كل الفونيمات الممكنة ، وإن كان بعضها أكثر في الاستعمال من بعض مثل :

k – h – m – u – v – i – y – t – s – n – r ... (٢).

وقد خصص بانيني مئات الصفحات في كتابه للحديث عن السوابق واللواحق وعددها ، ومكان وقوع كل منها (٣) .

وليس في السنسكريتية تقسيم للجذور إلى بسيطة ومركبة كما يفعل فقهاء اللغة المحدثون . وعلى هذا لا نجد في تحليلاتهم أي إشارة إلى أن الجذر yudh (يقاتل) مأخوذ من جذرين بسيطين هما Ya (ينضم) و dha (يضع) (٤).

وقد ذكر Colebrooke أن هناك معاجم خاصة ألفت في الجذور السنسكريتية ، وأن هذه المعاجم قد مهدت الطريق أمام المعاجم الكاملة (٥) .

---

١) المرجع السابق ص ٢٢٤ وما بعدها وكتاب بانيني the Ashtadhyayi ص ١١٧ .

٢) Burrow في The Sanskrit language ص ١١٧ .

٣) انظر كتابه السابق الإشارة إليه ص ١١٧ وما بعدها .

٤) Chakravarti المرجع السابق ص ٢٢٨ .

٥) preface to.. مقالة نشرت تحت مجموعة Miscellaneous Essays ص٥٥ .

الفصل السابع
علم النحو

نشأته وتطوره :

ربما كان من غير المبالغة أن نقول إن علم النحو في أي بلد من بلاد العالم لم يلق من العناية مثل ما لقيه من الهند . وقد كان في الهند ما يقرب من اثنتي عشرة مدرسة نحوية مختلفة ، وأكثر من ثلثمائة كاتب في الحقل النحوي ، عرفنا معظمهم من خلال الاقتباسات ، ويوجد فعلا أكثر من ألف دراسة منها الأصلي ومنها الشارح (١) .

ولم يصل العلماء إلى نتيجة ما في محاولاتهم التاريخية لتحديد بداية النحو الهندي ، وكيفية نشأته وعلى أيدي من نشأ ، رغم ما بذلوه من محاولات جادة في سبيل ذلك (٢) . ولكن الشيء المؤكد أن النحو عند الهنود كان يعد من أهم العلوم الخادمة لا Vedas أقدم الآداب الدينية في العالم ، وأن دراسته نمت بنمو دراسة هذه النصوص وروايتها . ونتيجة لصلة هذه الدراسة بالدين حفظ لنا قدر لا بأس به منها ، وإن كنا لا نملك أي نماذج للمراحل المتقدمة للدرس

---

١) Belvalkar : Systems ص ١ .

٢) Chakravarti : The philosophy ص ١ ، ١٤ .

النحوي الذي كان يستمد مادته من اللغة بمعناها الواسع ولا يقصر نفسه على النصوص المقدسة وحدها (١) .

وقد أعطى ارتباط النحو في نشأته بالنصوص المقدسة — أعطاه قداسة كبيرة عند الهنود ، وجعله موضع اهتمام خاص . وقد اقتبس Punyaraja مثلا يقول : « إن الماء هو أقدس شيء على الأرض ، والكتب المقدسة أكثر قداسة من الماء ، ولكن النحو أكثر قداسة حتى من الكتب المقدسة »(٢) . وكان الهنود يعتقدون أن النحو يحتوي على أسس جميع العلوم (٣) . ونتيجة لهذا الاهتمام الخاص كانت دراسة النحو عندهم تأتي عقب انتهاء الطالب مباشرة من دراسة منهاج في نصوص الفيدا (٤) . وكان المثقفون منهم يحفظون أجزاء من كتب النحو (٥)

ومهما يكن من شيء فإننا نتجاوز هذه المرحلة المجهولة لنلتقي لأول مرة بعمل نحوي حاز إعجاب الجميع وهو عمل بانيني الذي استمر — ربما حتى الآن — يستخدم أساسا للدرس النحوي عند الهنود ومعيارا للاستعمالات اللغوية الصحيحة (٦) . ويعتبر العلماء عمل بانيني نتاج قرون عديدة من البحث والمحاولة لأجيال متتابعة من النحاة ، وليس ثمرة تفكير بانيني وحده . وقد أشار بانيني نفسه في كتابه إلى أسماء علماء كثيرين سبقوه واقتبس من آرائهم (٧)

وكما شل كتاب سيبويه التفكير النحوي عند العرب نظرا لقيمته وعظيم

---

١) Weber : The history ص ٢١٦ و Varadachari : A history ص ١٩٠ .
٢) Chakravarti المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .
٣) Winternitz : History of Indian literature ص ٤٢١ .
٤) المرجع والصفحة .
٥) Burrow : The Sanskrit language ص ٥١ .
٦) Weber : The history ص ٢١٦ ، ٢٢٢ .
٧) Burrow : The Sanskrit ص ٤٩ .

منزلته ، وحول النحاة العرب إلى مجرد شارحين أو معلقين أو معقبين ، فعل كتاب بانيني نفس الشيء ، فلم تظهر أعمال أصيلة في النحو بعده لمدة طويلة ، وتحول معظمها إلى تابع أو شارح أو مختصر أو ناقد ، وقد سبق أن أشرنا إلى كتابي كاتيايانا وباتنجالي ، ونضيف الآن إليهما الكتاب المسمى kasika والذي يرجع إلى حوالي عام ٧٠٠ م (١) . وبمرور الزمن على كتاب بانيني وبعد الفترة الزمنية بينه وبين قارئه تحول هدف النحاة إلى التبسيط والتيسير وتقديم مادة الكتاب في صورة سهلة لأولئك الذين لا يمكنهم الرجوع إلى النص الأصلي نظرا لصعوبته (٢) . والخطأ الذي وقع فيه هؤلاء النحاة هو أنهم بدلا من أن يحاولوا وضع نحو للغتهم المعاصرة ويقوموا بدراسة مستقلة — كما فعل بانيني بالنسبة للغته المعاصرة التي كانت موضوع بحثه — داروا في فلك بانيني وأسسوا دراستهم على نحوه .

وربما كان أقدم الأعمال القليلة التي تخلصت من سلطان بانيني كتاب Katantra (الكتاب المختصر) ، لمؤلفه Savavarman ، والذي ظهر قرب عهد المسيحية وكان هدفه تقديم دراسة مبسطة لنحو اللغة السنسكريتية (٣) .

مدارسه :

وجدت مدارس كثيرة في الهند ، وظهرت اتجاهات مختلفة في دراسة اللغة سواء قبل بانيني أو بعده . ورغم الغموض الشديد الذي يحيط بهذه المدارس ، وضياع مؤلفاتها فقد بذل العلماء جهودا مضنية للتعريف ببعضها ، ووصلوا إلى نتائج لا بأس بها ، وإن كانت معلوماتنا ما تزال محدودة جدا في هذا

١) المرجع والصفحة .
٢) المرجع السابق ص ٥٠ .
٣) المرجع السابق ص ٤٩ . وانظر مدرسة Katantra فيما بعد .

الخصوص . ولن تهمنا المدارس النحوية المتأخرة وإنما سنكتفي باستعراض أهم المدارس التي سبقت أوليات الدراسات النحوية عند العرب أو عاصرتها :

١) ربما كانت أقدم المدارس النحوية التي كشف عنها التاريخ هي المدرسة المسماة بمدرسة Aindra التي أسسها Indra . وقد كانت مؤلفات هذه المدرسة معروفة لبانيني واقتبس منها ، وأشار إليها تحت اسم « مدرسة المشارقة » ؛ ما يزال بعضها باقياً في شكل اقتباسات في الكتب النحوية المتأخرة . وعلى الرغم من أن هذه المدرسة تنتسب إلى نظام أقدم من نظام بانيني فإنها لم تبق لها آثار أقدم من نحو بانيني . وقد لاحظ العلماء أن المصطلحات الفنية التي استخدمتها هذه المدرسة كانت أبسط وأكثر بدائية وأشد اتصالا بعضها ببعض من مصطلحات بانيني ، وأن أسلوب هذه المدرسة ؛ وطريقتها في تناول المسائل وعرضها أسهل وأقرب إلى عقول الناس إذا قورن بنحو بنحو بانيني مثلا .

ووفقاً لما ذكره باتنجالي كان أتباع هذه المدرسة ينادون بمبدأ تحليل الجملة إلى كلمات ، واعتبار الكلمة المفردة وحدة للمعنى . وتقول الأساطير إن Indra تلقى تقسيم الكلام إلى أجزاء عن طريق وحي أو نداء علوي ، ولكننا مع الأسف لا نعرف النظام النحوي الذي وضعه Indra (١).

٢) Sakatayana الذي أشار إليه كل من ياسكا وبانيني — كما سبق — وعده العلماء من مؤسسي المدارس النحوية . وقد كان من أهم مبادئه مناداته بأن كل الصيغ غير الفعلية مشتقة من جذور فعلية . وقد فقد عمل هذا النحوي كذلك (٢) .

---

١) Burvell في On the Aindra School ص ٢ ، ١١ ، ١٢ و Chakravarti في The linguistic ص ١٣٦ ، ١٣٧ و Misra في The Descriptive ص ١٤ و Belvalkar في Systems ص ١٠ ، ١١ .

٢) Misra المرجع السابق ص ١٤ ، Chakravarti في The philosophy ص ٢٥ .

٣) Gargya — الذي أشار إليه ياسكا — وذكر العلماء أنه أسس مدرسة نحوية . وقد اعتبروه من المعتدلين في تطبيق نظارية الجذر الفعلي كما نسبوا إليه أنه أول من نادى بأن حروف الإضافة ليست رموزاً لمعان إغافية فقط ، ولكنها تحمل معناها الخاص المستقل حين تعزل عن الأسماء والأفعال (١) .

٤) Galava — الذي أشار إليه ياسكا أيضاً — وذكر العلماء أنه أنشأ مدرسة نحوية محترمة . ولكنه كان يميل أكثر إلى الدراسات الصوتية (٢) .

٥) Apisali — الذي أشار إليه بانيني — ووصفه العلماء بأنه أول النحاة العظماء الأربعة . وذكر النحاة القدماء أنه أول من تحدث في ثقل العلة وخفتها ، وأنه كان ذا منهج خاص في التأليف يتمثل في الاختصار والتركيز (٣) ويبدو أن هذا المنهج قد ورثه بانيني عنه .

٦) وإذا كان ياسكا يعد اشتقاقياً وباحثاً في فقه اللغة أكثر منه نحوياً ، فقد كانت له جهود موفقة ونظرات صائبة في النحو تجعلنا ندرجه في هذه القائمة . وأهم ما ينسب إلى ياسكا تقسيمه للكلام إلى أربعة أقسام : اسم وفعل وحرف إضافة وأداة . وهو تقسيم شامل يبدو أنه استخلصه بعد دراسة مستفيضة لنصوص الفيدا . وإن كان من غير الممكن القطع بأن ياسكا هو أول من قدم هذا التقسيم . كذلك قدم ياسكا تعريفات محددة لكل قسم من هذه الأقسام (٤) كما سنعرض بالتفصيل فيما بعد . ويعتبر بعضهم أن في عمل

---

١) Misra المرجع السابق ص ١٥ و Chakravarti المرجع السابق ص ٢٥ و The linguistic ص ١٦٨ .

٢) Misra المرجع السابق ص ١٥ و Chakravarti في The philosophy ص ٢٥.

٣) Misra المرجع السابق والصفحة .

٤) Sarup في The Nighantu ص ٦٦ وما بعدها و Chakravarti في The linguistic ص ١٤٠ و ١٤١ و ١٥٨ وما بعدها .

ياسكا أول فكرة عن النحو (١) . ويعد بعض آخر ياسكا حلقة الوصل بين مرحلة التصورات النحوية البدائية ومرحلة النضج والكمال التي وجدت على يد بانيني (٢) .

٧) ونأتي إلى مدرسة بانيني التي طبق اسمها الآفاق وأشار إلى مؤسسها كل من تعرض للنحو الهندي . وقد جاء بانيني وسط هذا الخضم المتلاطم من الأفكار والآراء وكان عليه — كما يقول Misra — أن يشق طريقه وسط هذه الآراء والاتجاهات المتعارضة ، فرأي يركز على المعنى ، ورأي على النطق ؛ رأي ينادي بالجذور الفعلية لكل اسم ، ورأي ينكر ذلك ؛ رأي يقسم الكلمة إلى أربعة أنواع ، ورأي يزيد أو ينقص ؛ رأي يرى للحروف التي تسبق الأسماء أو الأفعال معنى مستقلا ، ورأي يرى أن معناها مساعد ؛ رأي يركز على الفلسفة ورأي على مجرد الوصف (٣) . وقد سبق أن عرضنا كتاب بانيني المسمى Ashtadhyayi ، وشرحنا نظامه وأسلوبه مما لا يحوجنا إلى إعادة الحديث في هذا الموضوع . والظاهرة الملاحظة في عمل بانيني أنه كتب في أسلوب sutra (٤) فقط ، أعني القواعد والأوصاف الأساسية بطريقة مركزة . فهل اكتفى بانيني بذلك أو نقل إلى تلامذته شفوياً أو تحريرياً التفصيلات والتعليقات على قواعده والشروح والأمثلة ؟ لا أحد يعلم ذلك . وقد اعتبر العلماء كلا من كاتيايا وباتنجالي امتدادا لبانيني (٥) (وقد سبق الحديث

---

١) Weber في The history ص ٢٦ .

٢) Belvalkar في Systems ص ٥ ، ٦ .

٣) انظر Misra في The Descriptive ص ١٦ ، ١٧ .

٤) كلمة Sutra كما تقول المراجع الهندية مشتقة من الأصل siv بمعنى خيط أو رباط ، وتستعمل في الأدب السنسكريتي بمعنى القواعد أو الأعمال التي تحوي هذه القواعد (Sanskrit & Culture ص ١٥٨).

٥) Misra المرجع السابق ص ٢٦.

عنهما) ، وبعضهم يضيف إليهما Vyadi الذي ألف كتاباً في النحو اسمه Sangraha يحتوي على مائة ألف بيت مع شرحها . وذكروا أن باتنجالي أقام كتابه الماهابهاشيا على هذا الكتاب (١) .

ويبدو أن سلسلة الأعمال النحوية قد انقطعت لبعض الوقت بعد بانيني وشراحه السابقين إذ لا نجد أعمالا أخرى حتى نهاية القرن الخامس الميلادي ، حين نجد محاولة لإحياء أثر بانيني تمت على يد Chandragomin (سنتحدث عنه فيما بعد باعتباره صاحب مدرسة خاصة) . وقد كانت نتيجة هذا الجهد ظهور عمل مشترك اسمه Kasika في القرن السابع الميلادي قام به نحويان يدعيان Vamana و Jayaditya . وتعد ال Kasika أكمل تعليق على كتاب بانيني وصلنا بنفس ترتيبه شارحاً كل قاعدة ومعطياً الأمثلة والتوضيحات . ثم تبع هذا العمل تعليق آخر في القرن الثامن الميلادي يسمى Nyasa لمؤلفه Jinendrabuddhi . وأهم ما يميز هذه المرحلة من الدراسة عدم المحافظة على ترتيب ال Ashtadhyayi ومحاولة إيجاد رابط منطقي بين أجزائها المختلفة . كذلك حاول بعضهم أن يعالج النحو باعتباره نظاماً من الفلسفة . وربما يرجع ذلك إلى نفوذ بوذي على هذه المرحلة (٢) .

وأهم ما يتصف به نحو بانيني :

أ ــ أنه كما يقول Joos «نموذج للوصف الذي أقيم على أساس رياضي» (٣) ، وكما يقول Misra «أنه دراسة وصفية تزامنية» (٤) . ولكنه في الحقيقة

---

١) المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٥ .
٢) Misra المرجع السابق ص ٢٥ — ٢٧ .
٣) المرجع ص ١١ .
٤) المرجع ص ١٢ .

وصف للحقائق بدون جعل مثل هذا الوصف صالحاً لعمل نظريات كما يفعل اللغويون المحدثون حين يصنفون المادة اللغوية (١) .

ب ـ أن بانيني أراد أن يكمل النقص في النحو التقليدي وأن يجعل النحو علماً مستقلا قائماً بذاته لا يخلط بغيره من المعارف (٢) .

جـ ـ أن اللغة التي حللها بانيني كانت لغة حية حقيقية (٣) .

د ـ كان منهج بانيني تحليلياً ، ولهذا أصبح نحوه قدوة ونموذجاً حتى لأتباع المدارس الأخرى (٤) . ومن المعروف أن تحليـل الكـلام إلى وحدات هي الجمل ـ الكلمات ـ الأصوات ـ كما فعل اليونانيون وطبقة الأوربيون حتى نهاية القرن الماضي ـ يعد معيباً من نقطة أساسية ، وهو أنه أنه أهمل الوحدات الوظيفية التجريدية للكلمات ، أو ما يمكن أن يسمى بالمورفيمات ، وأخذ الكلمات على أنها وحدات غير قابلة للانقسام . وظل الأمر كذلك حتى عرفت طريقة بانيني في تحليل الجملة فغيرت السبيل ،وأصبح الآن من الممكن تحليل الصيغ الاسمية والفعلية للغات هند أوربية أخرى إلى إلى وحداتها من جذر ولاحقة ونهاية .. وكل منها يحمل شكله الخاص به ووظيفته (٥) .

هـ ـ أنه قدم القواعد في اختصار شديد ربما ليسهل الحفظ والتناقل الشفوي. وقد كانت هذه الطريقة شائعة في عصره ، وكانت رد فعل أو طرفاً مقابلا

---

١) Goldstucker في Sanskrit & Culture ص ١٢٤

٢) المرجع قبل السابق والصفحة .

٣) المرجع السابق ص ١٣ . (Misra)

٤) المرجع السابق ص ١٧ .

٥) Shefts في Grammatical Method ص ٩ مقدمة .

لطريقة البراهمة التي كانت تعمد إلى التقرير والبسط مع التدعيم بالامثلة والشواهد (١) .

و ــ أنه استخدم مصطلحات فنية محددة (٢) .

ز ــ أنه عالج النحو بطريقة منطقية مقنعة. وقد شرح ذلك Belvalkar قائلا : « في تحليل اللغة أول وحدة تقابلنا الجملة التي تحتوي بدورها على فعل (في زمن ما من الأزمنة الممكنة وفي صيغة ما من الصيغ) وعدد من الأسماء التي يرتبط بعضها ببعض (عن طريق الحالات المختلفة لبيان العلاقات) . والآن فإن صياغة الفعل الذي نجده في الجملة يبدو أنها تم عن طريق لصق لواحق بالجذور . وهذه اللواحق هي التي تعطي الأفعال صورا متنوعة ومعاني وقتية . هذه اللواحق نلاحظ أنها تقع تحت صنفين ، ونجد بعض جذور الأفعال يأخذ واحداً منها فقط بصورة دائمة وبعضها يأخذ واحداً ولكن مع الانتقال من أحدهما للآخر . وبالنسبة للأسماء نجد قسماً منها لا يأخذ نهايات إعرابية مختلفة ، ويجب أولا شرح طريقة تركيب وتنويع هذا القسم . ونأخذ الفعل مرة أخرى ــ فبعد التعريفات التمهيدية وغيرها من الأشياء المتعلقة بها ــ نجده يتحدث عن طريقة تأليف أنواع من الأزمنة والصيغ ثم يشرح ما سماه بالمشتقات الفعلية verbal derivatives ، وهي تلك الوحـــدات الموجودة في الجملة ، والتي تأخذ شكل الأسماء (بما تحويه من نهايات إعرابية) ، ولكنها في نفس الوقت تبدو وثيقة الصلة من حيث المعنى والتأليف من جذرها الفعلي الذي اشتقت منه . وبعد ذلك نجده يركز على الوحدة الاسمية في الجملة ذاكراً أن الاشتقاقيين يبدون وكأنهم يرون أن كل الأسماء مشتقة من أصل فعلي وهو ما توصلنا إليه بعد اختبار طويل .. ثم يأخذ في مناقشة ذلك . وهذا يعطي

١) Misra المرجع السابق ص ١٨ ، ٣٠ .
٢) المرجع السابق ص ٣٠ .

فكرة كاملة عن طريقة الـ Ashtadhyayi . وإذا كان بانيني قد خرج على هذا النظام في بعض الأماكن، فقد كان يقصد التيسير ومع وجود المناسبة»(١).

٨) مدرسة Chandra ومؤسسها Chandragomin ، وهو نحوي بوذي يوضع في فترة ما بين ٦٥٠ و ٤٧٠ م. وكان من أهدافه كتابة نحو جديد يمد تلاميذ كنيسته بقواعد تتخلص من العناصر البرهمية التقليدية (٢). كما كان يهدف إلى إصلاح أعمال مدرسة بانيني لما اتسمت به من الاختصار الشديد وعدم الدقة في بعض الأحيان . وخصائص كتابه تتلخص فيما يأتي :

أ ــ عدد قواعده ٣١٠٠ في مقابل نحو ٤٠٠٠ في كتاب بانيني .

ب ــ يحتوي على ٦ أبواب وكل باب يحتوي على ٤ فصول .

جـ ــ البابان الأولان عند بانيني وزعا على أبواب الكتاب .

د ــ رأى المؤلف إعادة تنظيم المادة النحوية بأن وضع القواعد التي تعالج موضوعاً واحداً (سواء كان صوتياً أو نحوياً أو مرتبطاً بأجزاء الكلام) في مكان واحد .

هـ ــ اصطلاحاته ــ مع خلاف يسير ــ هي نفس اصطلاحات بانيني .

و ــ أضاف بعض زيادات على عمل بانيني مثل قائمة الكلمات التي أضافها، وهي قائمة مكونة من ثلاثة أقسام يحتوي قسم منها على السوابق مرتبة بحسب حرفها الأخير .

ومن المعروف أن المؤلف كتب أعمالا أخرى غير نحوية وأنه كان شاعراً

---

١) systcms ص ٢٠ – ٢٢ .
٢) Belvalkar ص ٣٥ ، ٥٨ .

كذلك ونظم قصيدة دينية ومسرحية (١) .

٩) مدرسة Jainendra (انظر الأسطورة في سر هذه التسمية في الفصل الأول) والمؤسس لها هو Jina ، وقد أسسها في وقت قريب من المدرسة السابقة ، ويرجح بعضهم أن يكون ذلك في الجزء الأخير من القرن ٥م. وقد ألف Jina كتاباً عنوانه Vyakarana روى لنا بروايتين ، إحداهما مطولة والأخرى مختصرة . أما المختصرة فتحوي حوالي ٣٠٠٠ قاعدة وتزيد المطولة عنها بنحو ٧٠٠ قاعدة بالإضافة إلى بعض اختلافات في التعبير وفي ترتيب القواعد . وقد حفظ لنا شرحان لهذا الكتاب أحدهما يرجع إلى عام ٧٥٠ م تقريباً ومؤلفه هو Abhayanandi . وأهم ما يميز هذه المدرسة بعض التعديلات في الترتيب على نظام بانيني — ومنها ما له قيمة خاصة — مع إدماج عمل بانيني ببعض الأعمال الأخرى المتأخرة عنه (٢) .

١٠) مدرسة Katantra (انظر الأسطورة حول هذه المدرسة في الفصل الأول) . والكلمة — كما يقول الشراح — تعني « كتاباً مختصراً » أو متناً يغلّب جانب السهولة ، وتلبية حاجات التلاميذ والمبتدئين على جانب الدقة البانينية. ومؤسسها هو Sarvavarman ، الذي يظن أنه كان يعيش في القرن الأول الميلادي . وقد صرح Weber بأن الهدف من وضع هذا النحو كان تلبية لحاجة أولئك الذين يريدون دراسة اللغة السنسكريتية من خلال اللغة المسماة Prakrit (٣) . وعلى هذا فنحو Katantra ليس خلقاً لمدرسة بقدر ما هو تيسير للنحو وتبسيط لقواعده . وتدل تلك الشروح والتعليقات الكثيرة التي

---

١) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦١ .

٢) المرجع السابق ص ٦٢ — ٦٧ .

٣) جاء في Sanskrit & Culture أن هذا الاسم يجمع كل اللغات أو اللهجات التي تفرعت عن اللغة السنسكريتية أو لها علاقة وثيقة بها (١٥٩) .

كتبت عليه فيما بعد – وبعضها يمتد حتى عام ٨٠٠ م – على مدى ما استقبل به هذا العمل من حفاوة وتقدير . وهكذا حولت هذه المدرسة النحو لمصلحة التاجر والزارع والرجل العادي ولم تقصره على طائفة الBandيت والرهبان كما كان من قبل (١) .

الغرض من دراسة النحو :

بيّن النحاة الهنود فائدة دراسة النحو والغرض من الاشتغال به في النقاط الآتية :

١) حفظ نصوص الـ Vedas .

٢) هو وسيلة لتيسير الفهم والتعبير وأقصر طريق لمعرفة الكلمات .

٣) ندرسه لأننا ربما نكون مثل الإله العظيم .

٤) ندرسه لأنه قسم من الدراسة المتصلة بمنوال التفكير . فإن النحو – مثل المنطق – يعالج موضوعاً يشكل قواعد المعرفة . إن أهمية النحو – كما يقولون – تكمن في أنه يعالج الكلمات التي نفكر بواسطتها ، ونعلم ونشرح أنفسنا وأفكارنا إلى الآخرين . إن كل كلمة رمز لعملية ذكاء ، ولا معرفة يمكن اكتسابها بدون الكلمات (٢) .

بعض الأضواء على النحو الهندي :

ليس من همنا هنا أن نعرض مختصراً للقواعد النحوية السنسكريتية ، فمحل ذلك كتب القواعد لمن أراد أن يتعلم النحو السنسكريتي . وإنما همنا أن نبرز

١) Belvaklar المرجع السابق ص ٨١ – ٨٧ .

٢) Chatterji في Patanjàli ص ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٩

و Chakravarti في The philosophy ص ٣١٥ .

بعض النقاط التي أثارها أو طبقها النحاة الهنود ، مع الإشارة – في بعض الأحيان – إلى رأي نحاة اليونان في هذه النقاط ليتبين الفرق بين الرأيين ونترك الحكم للقارىء في المفاضلة بينهما إن أراد :

١) نقطة البداية عند كل من الهنود واليونان مختلفة . اليونانيون بدءوا من الفلسفة وحاولوا أن يطبقوا قواعدهم الفلسفية على حقائق اللغة ، في حين أن الهنود بدءوا بجمع المادة اللغوية وتصنيفها ، ثم استخلاص الحقائق منها ، ولم تتجاوز تعميماتهم الأشكال الموجودة في الكلام(١) .

٢) أثار النحاة الهنود مشكلة العلاقة الدلالية بين الجملة وكلماتها المكونة لها . إن الجملة – كما هو واضح – شيء أكثر من معاني الكلمات التي تضمها سواء من الناحية الدلالية أو النحوية . وقد اتجه النحو التقليدي الغربي منذ البداية إلى التركيز على الكلمات باعتبارها أصغر وحدة ذات معنى والنظر إلى الجملة باعتبارها نتاجاً لتجمع الكلمات(٢) . أما الهنود فقد أخذوا اتجاهين نحو هذه المشكلة :

أ – ففريق نظر إلى الجملة باعتبارها حدثاً كلامياً واحداً غير قابل للتقسيم ، تحمل معناها ككل ، مثل الصورة التي ينظر إليها لأول وهلة على أنها كل متجانس . وعلى هذا لا بد أن يبنى أي تحليل لغوي على الجملة . وهؤلاء يرون أن الوحدة الصوتية لا استقلال لها ، وأن الأصوات المجموعة في شكل كلمات لا استقلال لها كذلك . والاتجاه نحو إنكار استقلال الكلمة قد أكد بنظام الكتابة السنسكريتي الذي لا يعطي اهتماماً لحدود الكلمات . وعلى هذا فإن تتابعاً من

---

١) Muller : A history ص ١٤١ .

٢) Robins : A Short History ص ١٣٨ . وقد صرح أرسطو بأن الجملة عبارة عن مجموعة من الأجزاء متميزة بذاتها (انظر Chakravarti في the linguistic ص ١٣٣).

الكلمات مثل taan eva كان يكتب taaneva . وعلى هذا رفض هؤلاء أقسام الكلام واعتبروها مجرد وهم ، ورفضوا تحليل الكلمات إلى أصوات ، أو تحليلها إلى جذور ولواحق .

ب – وفريق آخر رأى أن للكلمة استقلالا ، وأن الجملة مبنية من كلمات، كل كلمة تؤدي دورها المستقل في المعنى . ومن مجموع هذه المعاني يتشكل معنى الجملة . ومن هؤلاء العـالم الاشتقاقي ياسكا الذي قسم الكلمات إلى أربعة أقسام ، وحلل الكلمة إلى جذر ولواحق تشكيلية . وقد عرف هؤلاء الكلمة بأنها الصوت الذي يحمل معنى (١) .

٣) عرف النحاة الهنود منذ عهد ياسكا – على الأقل – أقسام الكلام . وقد صرح Pratisakhya بأن أقسام الكلام أربعة هي الأسماء والأفعال وحروف الإضافة والأدوات . واختار معظم النحاة الهنود هذا التقسيم ، وشرحه ياسكا في الـ Nitrukta . وقد عرف العالمان السابقان الفعل بأنه ما دل على حدث ، أو ما حوى معنى الحدث الواقع كفكرة أساسية ، والاسم بأنه ما دل على موجود أو الكون موجوداً كفكرة أساسية (٢) . وأما حروف الإضافة فقد ذكر كل منهما بأنهما الكلمات التي تحمل معنى إضافياً للفعل والاسم . وذكروا أن هناك ٢٠ حرفاً للإضافة في اللغة السنسكريتية . وقد اعتبرا ما عدا ما سبق أدوات ، وقد قسمها ياسكا إلى ثلاثة أنواع وذكر أمثلة كل واقتبس له نماذج من النصوص المقدسة (٣) .

---

١) Allen : phonetics ص ٩ ، و Robins : A short ص ١٣٨ ، ١٣٩ و Bhattacharya : A study ص ٣ ، ١٢ ، ١٣ ، و Chatterji : Patanjali ص ٤ .

٢) Muller ص ١٤٣ ، ١٤٤ و Chakravarti : The linguistic ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

٣) Muller ص ١٤٣ ، ١٤٤ و Sarup : The Nighantu ص ٦٧.

وبالنسبة للحرف نجد ياسكا يتبع أستاذه Sakatayana ويصرح بأنه « ليس له معنى مستقل عن الاسم أو الفعل الذي يتصل به .. وحين يفصل عن الاسم أو الفعل لا تجد له معنى في ذاته . ولهذا فان الحرف في صورته المنفصلة يشبه الحرف letter المفصول عن كلمته » (١) . ولكننا نجد نحوياً آخر هو Gargya يعارض هذا الرأي بقوله : « إن الحروف حينما تعزل عن الأسماء أو الأفعال تظل تحمل معانيها المختلفة » (٢) .

٤) لم يقنعوا في تحليل الكلام عند حد بيان أقسامه ، ولكنهم ذهبوا خطوة أبعد حين حللوا هذه الأقسام إلى عواملها الأولية وأعني بذلك الجذر (أو الأصل) واللواحق التشكيلية ، وقد سبق بيان ذلك .

ويلاحظ أن ياسكا لم يشر إلى « الضمير » كقسم من أقسام الكلمة . ومعنى هذا أنه اعتبره نوعاً من الاسم ، فلم ير حاجة إلى الإشارة اليه . في حين أننا نجد اليونانيين في فترة متأخرة يعدونه قسماً مستقلا (٣). ويلاحظ أن بانيني قد قسم الكلام إلى اسم وفعل فقط (٤) ؛ ولعل Helaraja كان يقصد شرح هذا الرأي حين قال : إن باقي الأقسام يمكن أن تندرج تحت الاسم والفعل ؛ لأن الأدوات تفيد بعض خصائص الأسماء ، ولذا تلحق بها ، وحروف الإضافة تحدد الحدث المدلول عليه بأصل الفعل ، ولذا تلحق بالفعل (٥) .

---

١) Chakravarti المرجع السابق ص١٦٧ ، وانظر كذلك كتابه The philosophy ص٢٦ .

٢) Chakravarti : The linguistic speculations ص ١٦٨ .

٣) المرجع السابق ص ١٤٧ ، ١٤٨ . ويلاحظ أن ياسكا قد اهتدى كذلك إلى نوع معين من الأسماء يجمع خصائص الاسم والفعل ، وسماه « اسم الفعل » Verbal noun (Sarup المرجع السابق ص ٦٧) .

٤) Chakravarti المرجع السابق ص ١٤٥ .

٥) المرجع السابق ص ١٤٧ .

فإذا نظرنا إلى اليونان نجدهم قد مروا بمراحل حتى عرفوا أجزاء الكلام . فأفلاطون – وتاريخه بعد ياسكا – عرف فقط الاسم والفعل (١) ، وأسس نظريته على التفرقة المنطقية بين ما يسمى موضوعاً وما يسمى محمولا . وأضاف أرسطو وغيره أنواعاً أخرى من أقسام الكلام ، حتى استقر الرقم عند ثمانية ، وردت كلها في مختصر النحو اليوناني الذي ظهر في القرن الأول قبل الميلاد (٢) .

وقد ذكر أرسطو أن الفعل يتضمن معنى الزمن والاسم لا يتضمن . وعلى هذا يكون أرسطو قد ركز على الزمن وتجاهل الحدث في حين أن ياسكا فعل العكس . ومن الواضح أن الزمن شيء ثانوي ولكن الحدث شيء أساسي وإن كانت كلمة « الحدث الواقع » في تعريف ياسكا تحوي معنى الحدث والزمن جميعاً . كذلك فإن تعريف أرسطو للاسم سلبي ، فقد بين مالا يحويه بدلا من أن يبين ما يحويه ، في حين أن تعريف ياسكا إيجابي (٣) .

أما تحليل الكلمات إلى جذور ولواحق فقد امتاز بها التحليل الهندي دون اليوناني كما سبق أن ذكرنا .

٥) عرف الهنود الأعداد الثلاثة المفرد والمثنى والجمع منذ عصر مبكر (عصر البراهمة) في حين أن أرسطو كان أول من ميز بين الأعداد وإن جاءت المصطلحات الفنية للمفرد والجمع في وقت متأخر (٤) .

٦) أما الجنس (التذكير والتأنيث) فربما كان النقطة الوحيدة التي يعترف

---

١) A History : Muller ص ١٤٢ .

٢) General linguistics : Robins ص ٣٧٥ .

٣) Sarup المرجع السابق ص ٦٧ و Chakravarti في The linguistic ص ١٦٦ .

٤) Muller ص ١٤٤ .

فيها لليونان بالسبق على الهند . لقد عرفها اليونان على يد Protagoras في حين أن الهنود لم يشيروا إليها قديماً ولم تظهر عندهم إلا على يد بانيني (١) . ومن المعروف أن السنسكريتية تحوي ثلاثة أجناس هي المذكر والمؤنث والمحايد (٢) .

٧) قسم النحاة الفعل السنسكريتي بحسب الزمن إلى ثلاثة أقسام : ماض وحاضر ومستقبل ، وقسموا الماضي إلى نوعين ماض بعيد وماض قريب(٣) . ويحكى Chakravarti خلافاً بين نحاة الهنود حول ما إذا كان هناك في الحقيقة ما يمكن أن يسمى بالزمن الحاضر (٤) .

٨) هناك إجماع بين الهنود أن مجرد وضع كلمة أو مجموعة من الكلمات بعضها بجانب بعض لا يمكن أن يشكل جملة ، فقولنا « النار باردة » لا يعد جملة رغم أنه يستوفي شكل الجملة ، ولكننا نقبل كجملة قولنا « النار حارة » . فما الفرق بينهما ؟ وما الأساس لتمييزنا ؟ يجيب الهنود قائلين : إن الكلمات التي تشكل جملة لا بد أن تلبي ثلاثة احتياجات هي : التوقع expectancy والاختصاص competency والتقارب proximity أو التجاور contiguity . فما معنى هذا ؟

أما التوقع فإنهم يقولون إنه أول مطالب الجملة . إنه ما يتوقعه السامع حين يبدأ المتكلم جملته بكلمتها الأولى .. فإذا قال شخص « ادخل .. » فالمعنى الذي يفهم منها يتطلب الإدراك المفهوم من كلمة مثل « الحجرة » . وعلى هذا إذا قلنا « النار .. » فالشيء المتوقع : « حارة » وليس « باردة » .

---

١) المرجع والصفحة .

٢) Burrow في The Sanskrit ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

٣) المرجع السابق ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

٤) The philosophy ص ٥٥ ، ٥٦ .

أما العامل الثاني الذي سميناه « الاختصاص » وربما كان من الأفضل أن يسمى « الاحتمال التركيبي » syntactical possibility فقد شرحوه قائلين : إننا حين نقول « النار باردة » تتوفر خاصة « الشكل التركيبي » أو « التوقع النحوي » ولكنها مع ذلك ليست جملة مفيدة . السر في هذا أنه لا يوجد « احتمال تركيبي » بين الكلمات المكونة للعبارة . فالبرودة ليست من صفات النار الطبيعية . وعلى هذا كان التعبير مناقضاً للخبرة العقلية ، وعليه فقولنا « النار باردة » لا يمكن أن يسمى جملة . وقد عرف بعضهم « الاحتمال التركيبي » بأنه « غياب أي تصور قادر على أن يقلب الفكرة المتجانسة التي يمكن أن تفهم من تجمع معين من الكلمات » . وعلى هذا « النار باردة » تحتوي على تصور قادر على مناقضة العلاقة بين النار والبرودة فهي لا تشكل جملة . وإذا قلنا « إنه يرش الزهور بالنار » لا يعد ذلك جملة أيضاً بناء على هذا . وقد اعترض بعضهم على التمثيل بهذه العبارة قائلا : إننا حينما نسمع مثل هذا القول نسخر من المتكلم ونبادره بالسؤال : كيف يكون ممكنا أن ترش أي شيء بجسم ناري غير سائل ؟ فلو أن الكلمات المشار إليها كانت لا معنى لها على الإطلاق سوى حروفها ما كان لمثل هذا السؤال من مغزى ولكان عبثاً .

وأما العامل الثالث الذي سميناه التجاور أو التقارب فقد شرحوه بقولهم : إن الإدراك المرتبط المعين لا يمكن أن يفهم من مجموع من الكلمات إذا كانت الكلمات الشارحة للتصورات والتي يسلم بعضها لبعض قد فصلت بكلمات ليس لها فائدة أسلوبية . وعلى هذا فإن التجاور التركيبي له جانبان :

أ — لا بد أن يكون هناك تتابع إدراكين أو أكثر يدعى ارتباطهما .

ب — الإدراكات المطلوبة لا بد أن يعبر عنها بالكلمات وليس بطريق الاستنتاج . فلو قلنا : « الجبل ومحمد عال يجلس فوقه » انتفى الشرط الأول .

ولو قلنا : « أطعم البقرة » ونريد البقرة والفرس بواقع الحضور أو الإشارة اختل الشرط الثاني .

ولكن يرى بعضهم أن هذا العامل الثالث غير مهم ولا يخل بشرط الجملة . إنه ربما يكون مهماً بالنسبة للأغبياء أو بطيئي الفهم ، ولكنه لا أهمية له بالنسبة للأذكياء أو سريعي الفهم . كذلك ألسنا نفهم الشعر رغم ما يوجد فيه من تقديم وتأخير وكلمات معترضة وفواصل للجمل لا علاقة لها بتركيبها ؟ (١)

٩) صرح نحاة الهند أن « النحو لا بد أن يؤسس على اللغة التي هي أصل له وهو فرع عنها . وإن حقائق اللغة لا يمكن السؤال عنها بلماذا ؟ لأن قيمتها في ذاتها . لا يصح أن نسأل : لماذا حمل جذر معين عدداً محدوداً من الصيغ ، أو لماذا حمل هذا المعنى دون ذاك ؟ لأنه لا إجابة عن هذا سوى أنه حدث هكذا وأنه طبيعة الجذر . النحو يجب أن يأخذ اللغة كما كانت ويحللها على ما هي عليه » ، وأنه « ما دامت اللغة دائماً تتغير مهما كان ذلك محدوداً فإنه يجب على النحاة أن يراعوا ألا يكون نظامهم النحوي جامداً ولكن مطاطاً ليماشي التطور اللغوي » (٢) .

١٠) بعض النحاة كان يرى أن اللغة السنسكريتية النقية توجد في بعض المناطق دون بعض . وقد تحدث بعضهم عن لغة الشمال باعتبارها أنقى اللغات حيث يجب أن يذهب العلماء ليقابلوا الثقات في اللغة (٣) .

---

١) Bhettacharya في : A study in language ص ١٢٨ – ١٥٥ و Robins في A short ص ١٤٥ .
وقد عقد Robins مقارنة بين هذه الشروط الثلاثة وشروط Firth التي تتطلب Colligability و Collocability و temporel sequence ، واعتبرها متقاربة. (المرجع السابق والصفحة) .

٢) Palsule في The Sanskrit ص ٢٥١ .

٣) Winternitz في History ص ٤٢٢ .

١١) يرجع إلى بانيني مباشرة المصطلح الوصفي الكثير الشيوع الآن بين اللغويين وهو التمثيل الصفْري لوحدة أو قسم Zero representation . وهي نظرية توسع اللغويون المحدثون في استخدامها ومن بينهم دي سوسير في تحليله لأشكال حالة الفاعلية في اللغة اليونانية (١) .

١٢) صرح Robins بأن أوصاف بانيني التي اعتمدت على التمييز بين الجذور واللواحق يمكن أن تكون الموحية بالتصور الحديث لنظرية المورفيم . وقد ذكر كذلك أن ما يسمى بالمصطلح الحديث allomorphs لمورفيم واحد قد عالجه بانيني حين تحدث عن الصورة الأساسية التجريدية abstract basic form ،وذكر أنه نتيجة لتغيرات داخلية مورفوفونولوجية تتحول إلى مورفات حقيقية من الكلمات الناتجة (٢) .

* * *

١) Robins في A short history ص ١٤٨ .
٢) المرجع السابق ص ١٤٧ .

الفصل الثامن
فن المعاجم

يكتنف الغموض الشديد نشأة هذا الفن عند الهنود وبخاصة إذا كنا نريد ذكر التواريخ ، وننشد التحديد الزمني الدقيق . وربما كانت أقدم الأعمال المعجمية عند الهنود تلك القوائم من الكلمات الصعبة المأخوذة من النصوص المقدسة Vedic Texts والتي عرفت باسم الـ Nighantu (١) . وعلى الرغم مما يظن من قدم هذا النوع من المؤلفات ، نظراً لارتباطه بنصوص الفيدا التي تعدّ أقدم النصوص الأدبية التي وصلتنا(٢) — فإننا لا نستطيع أن نحدد فترة ظهوره أو نذكر أسماء من ألفوا فيه . ولكن كما سبق أن ذكرنا لا يصح اعتبار هذه القوائم معاجم ولا أشباه معاجم ؛ لأنها اكتفت بالسرد والجمع ، ولم تحو أي شروح للكلمات المجموعة على الإطلاق .

وتلا ذلك ظهور الـ Niruktas التي كانت بمثابة الشرح للقوائم السابقة ، والتي يمكن أن تسمى معجماً من هذا النوع الذي يطلق عليه «معاجم الموضوعات» أو « معاجم المعاني » . ولا نعرف بالتحديد بداية هذه المؤلفات ولا اسم أول من ألف فيها ، وإن كنا نعلم أن أقدم ما وصلنا منها هو عمل ياسكا السابق الإشارة إليه (٣) .

---

١) Winternitz في History of Indian ص ٤٥٣ . وانظر ما كتب تحت اسم ياسكا فيما سبق .

٢) منها ما يرجع إلى حوالي ١٢٠٠ ق م. انظر Bloomfield في Language ص ١٠ .

٣) انظر ما سبق أن كتبناه تحت اسم ياسكا .

وبعد فترة زمنية لا يعرف مقدارها ، ظهر نوع من المعاجم أطلق عليه بعضهم اسم كتب الكلمات word-books واسمه في الهندية Kosas . ويتميز هذا النوع بما يأتي :

١) أنه — بعكس النيروكتا — لا يتقيد بالنصوص المقدسة ، ولا يرتبط بأي كتاب معين وإنما يعالج الكلمات بوجه عام .

٢) أنه يشمل الأسماء فقط ولا يتعرض للأفعال (١) .

وأقدم المعاجم التي وصلتنا من هذا النوع جاءت في شكل قطع ممزقة ، ومنها يتبين أن شرحها للكلمات كان متقناً ومفصلاً (٢) . أما أقدم المعاجم الكاملة فهو معجم أماراسنها الذي اشتهر باسم Amara kosa والذي كتب قبل القرن السادس الميلادي كما سبق أن ذكرنا (٣) . وهو معجم مترادفات في ثلاثة أبواب ألحق به فصل عن المشترك اللفظي ، وآخر عن الكلمات غير المتصرفة ، وكلمات التذكير والتأنيث .

وقد لاقى هذا المعجم رواجاً وحاز ثقة المعجميين ، وكتبت عليه عدة شروح طوال عدة قرون امتدت من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر (٤) . وآخر هذه الشروح كتب سنة ١٤٣١ ، وقد اعترف مؤلفه أنه رجع فيه إلى ستة عشر شرحاً سابقا ، وإلى مائتين وسبعين مرجعاً مختلفاً(٥). وذكر الأستاذ Colebrooke أن معجم أمارا «يعد بإجماع الدارسين أحسن مرشد للكلمات الفصيحة في

---

١) Winternitz المرجع السابق ص ٤٥٤ .
٢) المرجع السابق ص ٤٥٥ .
٣) انظر ما سبق أن كتبناه تحت اسم أماراسنها .
٤) انظر ص ١ من مقدمة Amara's Namalinganusasana بتحقيق الأستاذين sardesai و Padhye
٥) ص ٤٥٧ Winternitz : History of Indian Literature

السنسكريتية ، وقد فاق غيره من المعاجم ، ولا يصح الرجوع إلى غيره إلا في حال صمته » (١) .

ويعيب هذا الكتاب – وأمثاله – أنه كتب في شكل منظوم ، مما جعله غير عملي ، ولا يمكن الاستفادة منه إلا بعد قراءته كله . بالإضافة إلى صعوبة اللغة التي كتب بها (٢) . وليس للأفعال محل في هذا المعجم لأنه معجم أسماء (٣) .

وقد رتب المؤلف جزء المترادفات بحسب الموضوعات ، وجزء المشترك اللفظي بحسب الحروف الساكنة في أواخر كلماته (٤) . أما الباب الأول من المترادفات فيتناول موضوعات مثل ؛ الجنة والآلهة والسماء والطقس والنبات والكواكب والوقت وأماكن القمر والكلام واللغة والصوت والموسيقى والآلات والرقص والظلام والجحيم والبحار والجزر والسواحل والسفن . ويتناول الباب الثاني موضوعات تتعلق بالأرض والمدن والجبال والغابات والأشجار والأعشاب والحشائش والأسود والوحوش والحشرات والطيور والصحة والمرض والأدوية والملابس والقبائل . أما الباب الثالث فقد تناول ألقاب الأشخاص ، وخصائص الأشياء ، والكلمات المركبة ، وبعض المسائل المتفرقة الأخرى . وتلا ذلك فصل المشترك اللفظي ، ثم فصل الكلمات غير المتصرفة . أما فصل أجناس الكلام فقد قسم إلى مؤنث – ومذكر – ومحايد – ومذكر ومحايد – ومذكر ومؤنث – ومؤنث ومحايد – ... (٥)

وقد عمل أمارا معجماً آخر يتعلق بالألفاظ الطبية ولكنه لم يصلنا (٦) .

---

١) مقدمة Cosha ص ١ .
٢) Amarakosa تحقيق وتقديم Tiwaree ص ٣ مقدمة .
٣) المرجع السابق ص ١١ .
٤) معجم أمارا بتحقيق Sharma ص ٤ .
٥) انظر Cosha بتحقيق Colebrocke
٦) ص ٣١٨ Devasthali : The history and culture

ومن المعاجم القديمة الهامة كذلك معجم المشترك اللفظي المسمى Anekarthasamuccaya لمؤلفه Sasvata ، الذي كان يعيش حوالي القرن السادس الميلادي . وترتيبه للموضوعات التي على أساسها وضعت الكلمات ترتيب عجيب جداً . فقد شرح أولا الكلمات التي تحتاج لبيان معناها إلى بيت كامل ، ثم الكلمات التي تحتاج نصف بيت ثم تلك التي تحتاج ربع بيت.

وهناك معجم آخر كتب في منتصف القرن العاشر الميلادي وهو معجم صغير من معاجم الـ Kosa واسمه Abhidhanaratnamala لمؤلفه Halayudha.

ويليه معجم كتب في القرن الحادي عشر وهو معجم ضخم جدا يسمى Vaijayanti لمؤلفه Yadavaprakasa . وفي هذا المعجم نجد الكلمات في أول الأمر قد رتبت بحسب عدد المقاطع ، ثم بحسب الجنس (التذكير والتأنيث)، ثم بحسب الحرف الأول . وأهمية هذا المعجم تأتي من ضخامته واحتوائه على كلمات لا وجود لها في المعاجم الأخرى (١) .

وربما كان يليه زمنياً معجم آخر اسمه Anekarthasamgraha لمؤلفه Hemacandra . وهو من نوع معاجم المشترك اللفظي ، ويقع في سبعة أبواب : الستة الأولى على التوالي للأسماء ذات المقطع الواحد – المقطعين – الثلاثة ... إلى الستة . أما السابع فيعالج الكلمات غير المتصرفة . وإلى جانب ترتيب الكلمات بحسب عدد مقاطعها نظر إلى الحرف الأول ، والحرف الساكن الأخير (٢) .

وإلى جانب معاجم المترادفات والمشترك اللفظي ، نجد أنواعاً أخرى من المعاجم – وإن كان يبدو أنها جاءت متأخرة زمنياً عن المعاجم السابقة – مثل معاجم الكلمات التي تكتب بوجهين أو ثلاثة . وهناك كتب أخرى اهتمت

---

١) Winternitz ص ٤٥٨ .

٢) Winternitz ص ٤٥٩ .

بالتنبيه على تصحيف بعض الكلمات وإبدال حرف بحرف أو ذكر نوع خاص من المشتقات(١) .

وأقدم معجم وصلنا للمعاجم الـ Prakrit ذلك المسمى : Paiyalacchi Namamala لمؤلفه Dhanapala ، وقد كتبه عام ٩٧٢ م ، وأهداه إلى ابنته الصغرى Sundari . وليس في هذا المعجم ما يستحق الإشارة سوى أن كلمات الآلهة والكلمات المتعلقة بالمسائل المقدسة قد جاءت أولا في الأبواب الثلاثة الأولى . واحتوى المعجم – إلى جانب الأسماء – على الأفعال والأدوات واللواصق ونحوها (٢).

والظاهرة الملاحظة بوجه عام على كل هذه المعاجم أنها كانت تكتب في شكل منظومات ليسهل حفظها ، كما أنها كانت تهدف إلى خدمة الشعراء . وهذا هو السبب في أن كثيرا من كتب الـ Kosas قد كتبها شعراء ، أو تناولها شعراء بالشرح . والمعجمي المشهور Amara Sinha كان شاعرا (٣) . كذلك كتب الشاعر Sriharsa معجماً للمشترك اللفظي(٤) .

والخلاصة أن ترتيب المفردات عند الهنود لم يكن يخضع لنظام معين . فبعضها كان يكتفي بالترتيب الموضوعي ، فيضع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد تحت عنوان واحد . وبعضها كان يرتب الكلمات بحسب الحروف الهجائية إما بحسب الحرف الساكن الأخير ، أو الأول ، أو كليهما معاً – – وان جاء هذا النوع متأخراً – وبعضها كان يأخذ في الاعتبار حجم

---

١) المرجع السابق ص ٤٦٣ و Colebrooke في : Preface to the ص ٥٥ .
٢) Winternitz ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ .
٣) ص ٣١٨ Devasthali : The History and Culture
وانظر Burrow في The Sanskrit ص ٥١ .
٤) Winternitz ص ٤٥٥ .

الكلمة ، وعدد المقاطع التي تحويها . وإلى جانب هذا لم يعرف عن أحد هذه المعاجم أنه اتصف بالشمول أو ادعى لنفسه حصر كلمات اللغة . وعلى هذا فلم يكن القصد من تأليفها تيسير الاستشارة والرجوع إليها عند الحاجة ، بقدر ما كان تقديم مجموعة من الكلمات يسهل حفظها عن ظهر قلب (١) .

وهكذا نرى أن الأعمال المعجمية عند الهنود كانت حتى إلى ما بعد القرن العاشر الميلادي تفقد أهم عنصرين من عناصر المعجم وهما : الترتيب والشمول. وإذا كان القرن الثاني عشر قد عرف عندهم بنشاط معجمي كبير فقد كان ذلك بعد إنتاج العرب لعدد كبيرمن معاجمهم العظيمة (٢) .

* * *

---

١) المرجع السابق ص ٤٥٥ .

٢) انظر Arabic lexicography : Haywood ص ٧.

الفصل التاسع

علم الدلالة

عالج الهنود — من وقت قديم جداً — كثيراً من المباحث والنظريات التي ترتبط بفهم طبيعة معاني المفردات والجمل (١) ، بل لا نغالي إذا قلنا إنهم ناقشوا معظم القضايا التي يعتبرها علم اللغة الحديث من مباحث علم الدلالة Semantics . وسنحاول أن نعرض هنا بعض مباحثهم في شيء من التفصيل ونشير إلى بعضها الآخر في إيجاز حتى لا نتجاوز الحيز الذي قدرناه لهذا العنوان :

١ — نشأة اللغة :

كان موضوع نشأة اللغة، أوكيفية اكتساب بعض الأصوات لمعانيها لأول مرة من المشكلات التي لفتت نظر علماء الدلالة الهنود . وقد اختلفت فيها وجهات النظر على النحو الآتي :

أ — اللغة قديمة ، وهي هبة إلهية وليست من صنع البشر . وقد ميز الله الإنسان بأن منحه المقدرة على الكلام ، وأعطاه اللغة التي يتكلم بها (٢) . وعلى

---

١) Bhattacharya في A study in language & meanig ص ٥ مقدمة.

٢) Chakravarti في The linguistic speculations ص ٥٨ .

الرغم من أن بعض الباحثين الهنود وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى مدرستي Leusippus و Naiyayikas قد وضعوا أسس الحقيقة أن « الصوت نتاج ذبذبة الهواء » ، وحاولوا إلى حد كبير التركيز على الجانب الطبيعي للغة ، تاركين ما وراء الطبيعة – أقول على الرغم من ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من فكرة « التدخل الإلهي » في ظاهرة اللغة ، وصرحوا بأن المعنى الأساسي للفظ لم يأت عن طريق الاصطلاح ولكن عن طريق الإله (١) .

ب– اللغة نتاج النشاط الفكري للإنسان وهي من صنعه واختراعه (٢) .

جـ – اللغة من اختراع الإنسان ، وقد حثه على اختراعها حاجته إلى الكلام في مواقف التضحية وتقديم القرابين للآلهة (٣) .

وقد نقد أصحاب المدرسة العقلية للفلسفة الهندية نظرية قدم الكلام ، وأسسوا نقدهم على أن حركة الجهاز النطقي هي السبب المباشر الذي أدى إلى حدوث الأصوات ، التي هي عرضة للاختفاء بمجرد انتهاء النطق بها . وعلى هذا فإنه لا يصح أن يقال إن الكلمات دائمة أو خالدة ، ما دامت فترة بقائها محدودة . كذلك فإن انقسام اللغات وتعددها يقف ضد نظرية القدم ، فلا توجد لغتان متطابقتان ، وتوجد لغات مختلفة باختلاف المناطق ، وهو ما لم يكن ليحدث لو كانت اللغة قديمة (٤) .

---

١) Chakravarti في The linguistic speculations ص ٦١ .

٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

٣) المرجع السابق والصفحة .

٤) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١ .

وربما كان من المفيد أن نقول إن من قالوا بقدم الكلام البشري لم يتفقوا على تفسير واحد ؛ فنجد النحاة يقولون إن لكل كلمة « جوهرا » Ward-essence وهذا الجوهر قديم وغير قابل للانقسام ، أما الأصوات – التي تقوم بدور الموضح أو الكاشف لذلك الشيء القديم – فهي وقتية وحادثة كما تدل الجزئيات الحادثة على العالم وهو – في نظرهم – قديم وكلى ←

٢) العلاقة بين اللفظ والمعنى :

جذب موضوع العلاقة بين اللفظ والمعنى اهتمام الهنود ، ربما قبل أن يجذب اهتمام اليونانيين (١) . وقد بدأ جمهور كبير من فلاسفتهم المناقشة بأن تحدثوا عن ثلاثة أقسام مختلفة في جوهرها هي ما يسمى بالكلمة Ward ، والإدراك cognition ، والمحتوى content . ففي حين تعتبر الكلمة مركبة من وحدات صوتية ضم بعضها إلى بعض فإن الشيء المحسوس « بقرة » مثلا ينظر إليه باعتباره نوعاً معيناً من الحيوانات له أعضاء معينة . أما الإدراك أو التصور فهو الربط بين اللفظ والشيء المدلول عليه ، وهو يستلزم معرفة سابقة بهما (٢) .

ولكن إذا كان الدال والمدلول عليه أمرين متباينين ، وليس هناك علاقة أساسية بينهما ، فكيف يمكن للفظ أن يدل على فكرة معينة أو على شيء ما ؟

الوجود . ولكن الـ Mimamsakas لا يرتضون هذا التفسير ، ويرفضون وجود شيء مستقل اسمه « جوهر الكلمة » لا يقبل التقسم أو التغير . ولا يقولون بوجود شيء سوى الوحدات الصوتية Sound-units التي تستقبلها الأذن حال النطق بها . وقد نادى هؤلاء بقدم الأصوات ووجودها الكلي omnipresence . وعلى الرغم من اعتبارهم الأصوات قديمة وكلية الوجود فقد صرحوا بأن النطق بها يعد حادثاً . ورب سائل يسأل : ولكن ما الفائدة في اعتبار الأصوات قديمة ما دامت استعمالاتها حادثة ، إن السبب ديني . فهؤلاء يعتقدون أن نصوص الـ Vedas قديمة وموجودة بذاتها ، وإلا ما كان لها كل هذه القيمة ، ولكانت حادثة مثل كل الأعمال الأدبية ، وما أمكن أن يقال عنها إنها « مستودع لكل الحقائق القديمة الموجودة بذاتها » . ولتحقيق ذلك للفيدا قالوا إن الأصوات قديمة ، ومعنى هذا أن الكلمات المكونة من الأصوات قديمة ، وكذلك الجمل المكونة من الكلمات ، وكذلك نصوص الفيدا جميعها . ولا يعني هذا أن من قالوا بحدوث الكلام قد أنكروا قيمة نصوص الفيدا ، فقد قالوا إن قيمتها تجيء من خلق الله لها وتعبيرها عن رأيه وهو المنزه العالم بكل شيء . انظر Bhattacharya المرجع السابق ص ٤ – ١١ .

١) Chakravarti : The linguistic ص ٥ .

٢) Bhattacharya : A study in language ص ٣٥ .

لقد اختلفت آراء الهنود في الإجابة على هذا السؤال واصطبغ بعضها بصبغة لاهوتية أو فلسفية :

أ – فنجد بعضهم (the Grammarians) يرفض فكرة التبـاين بين اللفظ والمعنى قائلا : إن كل شيء object يتصور مقترنا بالوحدة الكلامية word-element الخاصة به أو الدالة عليه ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . وعلى هذا فنحن نعتبر الكلمة عنصراً من العناصر المكونة للشيء object ، تماماً كما نعتبر الطين السبب المادي أو الرئيسي لكل المواد الترابية . فكما أن تصور الطين مشترك في كل إدراكات الأشياء التي يعرف أنها معمولة من الطين ، مثل الإناء والصحن والقدر ونحوها – فكذلك تصور الوحدة الكلامية (١) .

ب – ونرى بعضـاً آخر (the Mimamsakas) يصرحون بـأن العلاقة بين اللفظ ومعناه علاقة قديمة وفطرية أو طبيعية(٢) . وربما كان أصحاب هذا الرأي هم أنفسهم الذين يعتبرون نشأة اللغة على أساس من محاكاة الأصوات الموجودة في الطبيعة onomatopoeia . وأيا ما كان الأمر فقد اعترض على هذا الرأي بأن الكلمة الواحدة قد تؤدي معنيين في مكانين ، فكيف نقول إن العلاقة بين اللفظ والمعنى قديمة وفطرية ؟ ومثلوا لذلك بكلمة caura التي تعني « لصاً » في بعض مناطق الهند وتعني « أرزاً مطبوخاً» في مناطق أخرى(٣) . وقد رد الـ Mimamsakas على هذا الاعتراض بقولهم : إننا ندعي أن هذه العلاقة بين اللفظ والمعنى قديمة فطرية ، وندعي كذلك أنها كانت محددة بأداء اللفظ لمعنى واحد . أما تعدد معاني بعض الكلمات فإنه

---

١) Bhattacharya المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٤ .
٢) المرجع السابق ص ٤٦ .
٣) المرجع السابق والصفحة .

لا يهدم قاعدتنا . إذ على الرغم من أن خاصة التعبير واحدة ومحصورة ، فهي قابلة للتنوع تبعاً لتنوع العلاقة العرفية من بيئة لبيئة . ومعنى هذا أن أصحاب هذا الرأي لا يرفضون فكرة الاستعمال الاصطلاحي رفضاً باتاً ، وإنما يؤخرونه لمركز ثانوي ويعتبرونه عاملا مساعداً (١) .

جـ — أما الـ Vaisesikas فيقولون بوجود نوع من العلاقة الضرورية وغير المتنوعة بين اللفظ والمعنى شبيهة بالعلاقة اللزومية بين النار والدخان . وهم يشرحون وجهة نظرهم قائلين : لا بد من الاعتراف بأن كلمة معينة تملك نوعاً من العلاقة مع فكرة معينة مدلول عليها بها وإلا فما السبب في ربطها بها ؟ إننا نتصور النار والدخان لأنهما يتفقان في علاقة السببية والأثر . ولكن ماذا يمكن أن تكون العلاقة الموجودة بين الكلمة والشيء الذي تدل عليه ؟ إنه من الواضح أنه لا توجد علاقة طبيعية بينهما كالعلاقة بين النار والدخان .. وإنما العلاقة اصطلاحية أو عرفية فكلمة « بقرة» لا صلة لها بالشيء المسمى مثل الصلة بين الدخان والنار . فالفرق بينهما أن الأخير علاقته طبيعية ومستقلة عن إرادة الإنسان ، أما الأول فعلاقته عرفية أقامها اصطلاح مجموعة معينة . وفرق آخر هو أن المعنى المشار إليه بكلمة ما يختلف من مكان إلى مكان بخلاف العلاقة بين الدخان والنار التي هي ثابتة لا تختلف من وقت لوقت ولا من مكان لمكان (٢) .

ومعنى هذا أنه على الرغم مما قد يبدو من تطرف في رأي هؤلاء إذ يزعمون وجود علاقة ضرورية أو لزومية بين اللفظ ومعناه — فإنهم لم يبعدوا عن الواقع حين قرروا أن هذه العلاقة عرفية اصطلاحية ناشئة عن اتفاق الجماعة اللغوية المعينة .

---

١) المرجع السابق ص ٤٦ ، ٤٧ .
٢) Bhattacharya المرجع السابق ص ٤٠ ، ٤٤ .

د ـــ وأما الـ Naiyayikas فيرفضون فكرة وجود أي علاقة ضرورية بين اللفظ ومعناه ، كما يرفضون وجود علاقة طبيعية بينهما ، ويعتبرون أي محاولة من هذا االنوع تعسفاً وتجاوزاً للحد المعقول . وهم يرون أن الصلة بينهما مجرد علاقة حادثة مرتجلة ــ ولكن طبقاً لإرادة إلهية (١)

ومع هذا فعلى الرغم مما يبدو في آراء هذه المدرسة من مسحة علمية فإنهم لم يستطيعوا التخلص من العامل الميتافيزيقي ، حين قرروا أن المعنى الأساسي للفظ لم يأت عن طريق الاصطلاح وإنما جاء عن طريق الإله ومن ناحية أخرى فعلى الرغم مما يبدو من وفاق بين أصحاب هذا الرأي وفلاسفة اليونان في رفض وجود علاقة طبيعة أو ضرورية بين اللفظ والمعنى ، فالخلاف بين الفريقين ما يزال كبيراً فالأولون يرون أن هذه العلاقة من صنع الله في حين يرى الآخرون أنها عملية اجتماعية اصطلاحية(٢)

٣) أنواع الدلالات للكلمـــة

درس الهنود الأصناف المختلفة للأشياء التي تشكل دلالة الكلمات إن كلمة « بقرة » مثلا تستحضر صنفاً من الأشياء يختلف تماماً عما يستحضر بكلمة « أحمر » وقد اختبر الهنود الطبيعة المتميزة لكل من هذه الاصناف لأهميتها في دراسة دلالة الكلمات فعلى أساس التقسيمات لجواهر الأشياء والأصناف الموجودة في الخارج تقسم دلالات الكلمات ، وأي تغيير في الأولى يتضمن تغييراً مقابلا في الثانية(٣)

وقد اختلف الهنود في الرأي حول أنواع الدلالات التي تؤديها الكلمات

---

١) المرجع السابق ص ٥٣
٢) المرجع السابق ص ٦١ ، ٦٢
٣) المرجع السابق ص ٥٥

تبعاً لاختلافهم في تصنيف الموجودات ولآرائهم الفلسفية التي يؤمنون بها . ولا نريد أن ندخل بالقارىء في متاهات الفلسفة وأنواع المقولات ، ولكننا سنعرض في إيجاز آراء ثلاث جماعات من الهنود مشيرين إلى غيرها لمن أراد مزيداً من التفصيلات :

١ــ ولنبدأ بالنحاة Grammarians لنرى وجهة نظرهم ، وقد وضحها باتنجالي في مقدمة كتابه وفي مواضع متفرقة منه . وقد صرح باتنجالي بوجود أربعة أقسام للدلالات تبعاً لعدد الأصناف الموجودة في الكون ، لأن الكلمات شارحة لهذه الأصناف . هذه الأقسام الأربعة هي :

أ ــ قسم يدل على مدلول عام أو شامل universal

ب ــ قسم يدل على كيفية quality

جـ ــ قسم يدل على حدث action

د ــ قسم يدل على مادة substance (١)

ففي قولنا : « جاء الرجل الطويل محمد » توجد الأقسام الأربعة ، وهي ليست مترادفة وإن كانت تشير إلى شيء واحد هو « محمد » وفي هذا المثال نجد كلمة « رجل » اسم جمع يدل على عموم الرجل أي على أي عضو من أعضاء هذا القسم . أما « طويل » و « جاء » فتدلان على كيفية وحدث ، بينما يدل الرابع على الذاتية المفردة القائمة (٢) .

ويستطرد أصحاب هذا الرأي في شرح مذهبهم قائلين : إن كلمات مثل بقرة ــ فرس ــ كلب ــ فيل ... تعد أسماء لمجموعات class-names لأن

---

١) وضع Chakravarti المصطلح « طبقة » أو « مجموعة class بدلا من المصطلح الأول ، والمصطلح أسماء الأشخاص personal nammes بدلا من المصطلح الرابع . انظر the linguistic speculations ص ١٨٣ .

٢) Bhattacharya المرجع السابق ص ٥٨ ، ٥٩ .

كلا منها يدل على شيء عام .. بقرة عامة ، وفرس عام ... ولو أن كلمة بقرة تدل على بقرة معينة لما صح إطلاقها على بقرة أخرى . ولو قيل إنها تدل على بقرة معينة إلى جانب دلالتها على أي بقرة لأدى ذلك إلى محظورات منطقية . كذلك لو قيل إنها تدل على الأبقار بطريق الذاتية بقرة بقرة لأدى إلى محظورات أخرى (١) .

ثم يتساءل أصحاب هذا الرأي عن الفرق بين القسم الذي يدل على شيء عام والقسم الذي يدل على كيفية قائلين : ما الفرق بين بقرة وبياض ؟ إننا لا نستطيع أن نسلب البقرة بياضها كما لا نستطيع أن نسلبها بقريتها من غير أن نحطم ذاتيتها ، فما الفرق إذن بينهما ؟ ويجيبون على هذا التساؤل قائلين : إن العمومية (البقرية في هذا المثال) هي جوهر الذات ، وتظل غير متغيرة مدة وجودها واستمرارها . إن العمومية تخلع الحياة على الذات ، ولكن الكيفية مهما كانت لصيقة ليست كذلك . إنها مجرد عامل مخالف بين الأفراد . وليس من المستغرب أن نتصور بقرة تغير لونها من أبيض إلى أحمر وتظل بقرة ، ولكن أن تغير البقرة بقريتها وتظل بقرة فأمر مستحيل .

ويتساءلون بعد ذلك : ما السبب في فصل كلمات مثل أبيض — أحمر — حلو — مر ... ووضعها تحت قسم خاص ؟ لماذا لا نزيل الحاجز بين ما يدل على كيفية وما يدل على عام فيصبح العام شاملا بقرة — حصان — أبيض — أحمر ... ؟ أليس حقيقة أن كلمة أبيض تدل على بياض عام ؟ فلماذا لا ندخلها في القسم الأول ما دام مدلولها عاماً ؟ . ورغم دقة هذا السؤال وصعوبته واختلاف الآراء في معالجته والإجابة عنه فقد تناوله « باتنجالي » بنوع من البسط والوضوح فقال : إننا نقول عادة « اللبن أشد بياضاً من الزبد » ، فلو كان « البياض » له وجود ثابت وموحد مثل « البقرة العامة » ما كان يصح أن يقال مثل هذا التعبير لا

---

١) تفصيل هذه المحظورات المرجع السابق ص ٦٠ .

نحوياً ولا منطقياً . إنه لا تصح المقارنة في الأشياء الموحدة المتساوية بالنظر إلى نفسها . إن المقارنة تعني اختلافاً ذاتياً ، فلو كان بياض اللبن المعين مطابقاً لبياض الزبد المعين لكانت الجملة لا معنى لها ، تماماً كما لا معنى لقولنا : «أنا أقوى من نفسي» . وعلى هذا فنحن ندعي أن اللون الأبيض في كل حالة مختلف. ولكن باتنجالي في نفس الوقت – وليتماشى مع تقسيمه الرباعي يقول بوحدة الكيفيات . إن الكيفية المسماة « بياض » تعد وحدة لا ثاني لها . إن اختلاف درجات البياض في الأشياء البيضاء لا يعني خلافاً حقيقياً بين نماذج البياض أنفسها ، فاللون الأبيض في اللبن والزبد متطابق والخلاف بينهما هو خلاف في الطبقة السفلى التي بسطت تحت كل ، فجعلت البياض الذي لا يقبل المقارنة قابلا للمقارنة مع نفسه، تماماً كما هو الحال مع قطعة من البلور تبدو مختلفة نتيجة لما يوضع تحتها من زهور ذات ألوان مختلفة مثل الأصفر والأزرق والأحمر . والحال كذلك بالنسبة للكيفية المسماة « بياض » فرغم أنها واحدة تبدو متنوعة نتيجة لتنوع الأجسام التي تلحق بها . وزاد باتنجالي الأمر وضوحاً بضربه مثلا آخر في قوله : إن الدرجات الأقل أو الأكثر من البياض لا ترجع إلى اختلاف حقيقي في أمثلة البياض ولكن ترجع إلى اختلاطه بألوان أخرى مثل السواد أو الصفار أو الزرقة التي قد تنقص البياض أو تزيده رغم أنه في الحقيقة شيء واحد .

وينقد Udayana نظرية « وحدة الكيفيات » هذه ، وثبات أشكال الكيفيات مثل البياض والحلاوة قائلا : إن القول بعدم اختلاف الأشكال المعينة لكيفية مثل البياض لا يمكن قبوله أو الدفاع عنه . وكما توجد « بقرة عامة » يفترض معها التجاوز عن كل الاختلافات الفردية التي توجد بين بقرة وبقرة فكذلك الكيفيات . ويثبت هذه الاختلافات بين أفراد الكيفية بقوله : إن عدم التوحيد وعدم الاستقرار لأشكال الكيفية واضح في الاختفاء وفي الظهور لكيفيات متنوعة مثل السواد الذي يتحول إلى الحمرة إذا وضعنا قدراً في فرن

مع أن الجسم (وهو القدر) واحد ، وهو يعد طبقة سفلى واحدة . ومعنى هذا التعدد وعدم الثبات لأفراد الكيفية (١) .

أما بالنسبة للقسم الثالث وهو الحدث action فإنه يدل في رأيهم على استمرارية محددة بوقت معين . وعلى هذا فبينما الحدث له وجود وقتي ، ليس للكيفية هذا الوجود الوقتي . إن وحدة الحدث action-unit مثل « الطبخ » .. ليست مستقلة بنفسها ، ولا فكرة منفصلة بذاتها ، ولكنها مجموعة من الحقائق الممتدة خلال فترة محددة من الزمن مثل إشعال الفرن — وضع القدر على النار — صب الماء — وضع الأرز — إنزال القدر بعد النضج ... كل هذه الأحداث مأخوذة معاً تشكل الحدث المعروف « بالطبخ » ، وليس أي منها على انفراد . وعلى هذا فالتتابع المؤقت يشكل وحدة الحدث من أي نوع .. وليس الحال كذلك مع كلمات مثل أبيض — حلو .. التي تدل على كيفيات نفهمها بدون أن يتطلب فهمها أي معرفة بالزمن ، وعلاوة على ذلك فإن هذه الكيفيات ليس لها مضمون وقتي على الإطلاق (٢) .

وأما بالنسبة للقسم الرابع وهو المادة substance أو أسماء الأشخاص personal names أو الأسماء الخصوصية proper names ، التي تدل على ذوات معينة تختلف عن كل الذوات الموجودة في العالم ، فقد ذكروا أن الفرق بينه وبين الأقسام الثلاثة الأخرى يتمثل في أن استعمال الأخيرة مشروط بموضوعية objectivity أي منها أي بوجوده الخارجي في حين أنه لا يوجد أي شرط بالنسبة للأول . فليس الوجود الخارجي أو عدمه بمانع أو معوق من استعمال ما يسمى « بالأسماء الخصوصية » . إن كلمة بقرة قد

---

١) انظر Bhattacharya المرجع السابق ص ٦٣ — ٦٨ . وفي الرد على اعتراض Udayana ص ٦٩ وما بعدها .

٢) المرجع السابق ص.٧٢ .

نستعمل فقط حينما يتمثل وجود خارجي لبقرية عامة ، ومثل هذا بالنسبة لكلمة « أبيض » « وطَبْخ » ، فكل من هذه الأشياء له وجود موضوعي . ولكن إطلاق كلمة « محمد » مثلا ليس له شيء خارجي تلتقي معه . إننا قد نسمي كلباً باسم Caesar ، كما يسمى الفاتح الروماني العظيم ، على الرغم من عدم وجود مشابهة بينهما . ومعنى هذا أن « الأسماء الخصوصية » تخضع مسمياتها لهوى المسمِّي أو خياله . إنها لا تدل على شيء سوى تتابع مجموع معين من الأصوات ، ولذا فهي دالة على نفسها بعكس الأقسام الأخرى التي تدل على أشياء غير الكلمات نفسها ، والتي تعد من الناحية الموضوعية ذات وجود واقعي . وبناء على هذا فإنه في حالة الاسم الخصوصي Devadatta مثلا فنحن نفهم مادة substance عارية عن الصفات (بخلاف كلمات العموم أو الكيفية أو الحدث) وفي نفس الوقت نفهم ذاتاً منفصلة مدلول عليها بالمجموعة الصوتية d — e — v — a — d — a — t — t — a التي هي وحدها مدلول الكلمة . ومن أجل هذا سميت هذه الكلمات أسماء معينة أو خصوصية لأنها لا تدل على قسم موضوعي وإنما على الذات نفسها(١) .

وقد أثار بعضهم سؤالا هاماً هو : هل هذه الأقسام الأربعة تدل على الأشياء الأربعة الخاصة بها فقط وتستبعد ما عدا ذلك ؟ وبعبارة أخرى : هل الكلمة « بقرة » أو « أحمر » أو « طبخ » أو « قيصر » تدل على البقرة العامة والاحمرار العام والطبخ العام والمادة الغفل أو الذات المدلول عليها بتتابع معين من الأصوات وتستبعد ما عدا ذلك ؟ ألسنا نفهم من الكلمة « بقرة » ذاتا معينة ؟ ألسنا نفهم إلى جانب المعنى العام معنى الصفات والمادة التي توجد مرتبطة بهذا المعنى العام ؟ ألسنا نفهم من كلمة « بقرة » الشكل الخاص لهذا المخلوق مثل سهولة انقياده ، وفائدته التي تعد المصاحبات الثابتة لمعنى

١) المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

البقرية العام الذي يعد هو وحده مدلول كلمة بقرة؟ فإذا كنا ندرك كل هذه الأشياء بجانب المعنى العام فلماذا إذن يعد الشيء الأخير وحده هو المدلول ، ويستبعد ما عداه ؟ ومثل هذا يقال بالنسبة لكلمات الكيفية وكلمات الحدث . وحتى الأسماء الخصوصية لا يمكن أن تسلم من هذا التساؤل . ألسنا نفهم من كلمة « قيصر » كـل الكيفيات qualities والأحداث actions التي كونت تاريخ حياة ذلك البطل وليس مجرد الذات غير المعبرة كما تدل عليها الحروف الستة المتتابعة Ceasar ؟ (١)

٢) أما الـ Mimamsakas فلهم رأي مخالف . إنهم يرون أن كل الكلمات مدلولها عام أو شامل universal . إنهم يرون أنه حتى الأسماء الخاصة proper namcs تدل على معان عامة. إن اسم الشخص يمكن أن يطلق على أفراد كثيرين فكيف يصح ذلك إذا لم يكن هناك معنى عام موضوعي مشترك بينهما يسمح باستخدام اللفظ الواحد لها جميعها . إن كلمة بقرة تطلق على بقرات عديدة فرديّة كل منها يتميز عن الباقي . ولكن لأن معنى البقرية العام موجود في كلٍّ صح إطلاق الاسم عليه . وعلى هذا فلا بد أن نلاحظ معنى عاماً في الأسماء الخاصة أو أسماء الأشخاص يسمح بإطلاق الكلمة على أفراد كثيرين . ويزيدون فكرتهم وضوحاً فيقولون : إن كلمة Devadatta حينما ينطقها ابن ثمانين تختلف عنها حين ينطقها طفل في الخامسة ، سواء في

---

١) المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٥ وللإجابة على هذا السؤال انظر ص ٧٥ وما بعدها . وقد ذهب بعض النحاة إلى أن كلمات القسم الأول تدل على مفرد individual ، وكان رأي بانيني ، كما شرحه باتنجالي ، أن كلمات هذا القسم تدل على كلا النوعين الجمع class والمفرد individual . ولعله عني بذلك أن يوفق بين الرأيين المتعارضين . وذهب Gotma إلى أن مدلول الكلمة يشمل ثلاثة أشياء المفرد individual والشكل form والجمع class وهي في نظره ثلاثة أشياء مترابطة يعتمد كل منها على الآخر . ومدلول الكلمة مجموع هذه الثلاثة . فعندما ندرك معنى كلمة يعني ذلك أننا نفهم منها مفرداً منسوباً إلى مجموعة معينة ويمتلك ملامح عضوية خاصة به (انظر : chakravarti المرجع السابق ص ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨) .

التنغيم أو طريقة النطق . ولكننا رغم ذلك لا نعجز عن فهمهما على أنهما متماثلان بل متطابقان . ماذا أدى إلى ذلك ؟ الجواب هو ما تحتويه كلمة Devadatta – إلى جانب تتابع المجموع المعين من الأصوات والذي قد يتعدد نطقه – من معنى عام مثل عمومية البقرية الموجودة في كل فرد . وعلى هذا انتهى أصحاب هذه المدرسة إلى اعتبار الأسماء الخاصة ذوات معان عامة واعتبار كل الكلمات من نوع واحد وهو النوع الذي يدل على عام(١) .

٣) وأما الفلاسفة البوذيون Buddhists فقد خالفوا الآراء السابقة . لقد رفضوا فكرة وجود أساس واقعي للتصور الذهني . لقد اعترفوا أن الكلمة حينما نسمعها ندرك منها تصوراً مناسباً لها ولكنهم أنكروا الوجود الموضوعي لهذا التصور . إنه غير حقيقي وإدراكه يحدث نتيجة خداع بصري كما يحدث من من شخص ذي بصر مريض حين يرى القمر الواحد قمرين . إن العام في نظرهم شيء خيالي ليس له مقابل موضوعي ، وليس هناك ضرورة عندهم لإثبات وجود جواهر للحقائق ، التي يعدها غيرهما من الفلاسفة الطبقة السفلى التي تحمل الكيفيات qualities والأحداث actions والعموميات universals (٢) وتبعاً لما يقوله البوذيون فإن المادة كذلك ليست إلا توزيعاً أو تنظيماً من الخواص أو الصفات وليس لها وجود وراء ذلك . وإذا حللنا تركيب المادة substance فإننا نجده يحوي خواص معينة ولا شيء غير ذلك . فمثل الغابة التي لا وجود لها غير أشجارها المتفرقة التي تكونها ، كذلك المادة ليس لها وجود موضوعي خلاف الخواص أو الصفات التي تكونها .

كذلك ينادي البوذيون بنظرية التقلب أو التغير المتواصل flux التي تعني

---

١) Bhattacharya المرجع السابق ص ٨٠ ، ٨١ . وفي نقد هذا الرأي انظر ص ٨٢ وما بعدها .

٢) عند غير البوذيين هناك وجود إيجابي للعموميات universals ولها حضور في كل أعضاء هذا العام (المرجع السابق ص ٩٤) .

الوقتية بالنسبة لأي ذات مفردة . فلا يوجد شيء يحتفظ بنفسه في لحظتين متتاليتين ، ولذا فإن إدراك هوية الأشياء أمر وهمي . وبما أن الحقائق كل منها قائم بذاته — كما يقولون — فليس هناك وصف مشترك بينها تتقاسمه حتى يصح أن يطلق عليها اسم عام universal .

وقد وجه اعتراض إلى البوذيين مفاده : ماذا بين الأفراد إذن من مشابهة أو مماثلة تسوغ تسمية كل الأبقار باسم واحد هو « بقرة » ما دام كل فرد يختلف عن الآخر ؟ ولماذا لا يطلق على الفرس اسم بقرة ؟ وقد رد البوذيون قائلين : حقاً إن كل بقرة تختلف عن الأخرى ولكنها تختلف كلها عن الفرس والكلب . كل الأبقار المفردة بينها هذه الصفة المشتركة وهي مخالفتها لغير الأبقار ، وهذا سوغ إطلاق اسم واحد عليها . إن الصفة المميزة لكل نوع هي النفي . فالبقرة صفتها المشتركة نفي كونها غير بقرة not - not - cow وليست العمومية الإيجابية التي تسمى البقرية cow - hood وعلى هذا فكل كلمة عندهم تملك دلالة بالنفي التي هي لا شيء سوى نفي النقيض negation the opposte of (١) .

٤) مسائل متفرقة :

أ — قد يعتبر اللغويون أي شيء يفيد داخلا ضمن إطار اللغة مثل حركة اليد والغمزة والإشارة ولكن اللغويين الهنود يقصون هذا من دائرة اللغة ، ويقصرونها على الأصوات المنطوقة أو اللغة المتكلمة(٢) .

ب — صرح الهنود بالعلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر وعدم إمكانية تصور أحدهما بدون الآخر (٣) .

---

١) المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٥ . ولنقد نظرية نفي النقيض انظر ص ٩٦ وما بعدها . وانظر Robins : A short history ص ١٣٨ .

٢) chakravarti : The linguistic ص ٧١ .

٣) Bhattacharya : A study in language ص ٥ مقدمة .

جـ — يذكر باتنجالي أن وظيفة اللغة الأساسية التعبير عن الأفكار ، وهو يرى أنه في حالة خلو الشخص من الأفكار التي يريد التعبير عنها فلا حاجة به تدعو إلى تحريك جهازه النطقي(١) .

د — نصح ياسكا بضرورة وضع الكلمة في سياقها لكي يتضح معناها ، وحذر من عزل الكلمة عما جاورها من كلمات (٢) .

هـ — لاحظ ياسكا وجود بعض التعبيرات expressions التي لا يمكن التغيير فيها مثل Indra and Agni (أب وابن) وليس Agni and indra (ابن وأب) (٣) .

و — أثار الهنود القدماء مشكلتي الترادف والاشتراك اللفظي ، وقد سبق أن ذكرنا بعض مؤلفات لهم تجمع كلمات كلا النوعين . ولم يكتفوا بجمع الكلمات بل ناقشوا المشكلة من بعض زواياها . فنجد ياسكا يصرح أنه ليست الأسماء فقط هي التي تحوي مترادفات ولكن الأفعال كذلك (٤) ولاحظ باتنجالي أن الكلمة الواحدة ربما تؤدي أكثر من معنى ، كما أنه من الممكن أن تؤدي أكثر من كلمة معنى واحداً (٥) . وصرحوا كذلك بأن الكلمة قد يكون لها معنى أصلي ثم تكتسب معنى ثانوياً (٦) . وميزوا بين المعنى الأصلي والمعنى الثانوي بأن الأول هو الذي يتبادر إلى الذهن حين سماع الكلمة(٧) . وأثاروا سؤالا

---

١) Chakravarti : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

٢) The Nighantu : Sarup ص ٥٨ .

٣) The Nighantu : Sarup ص ٦٨ .

٤) المرجع والصفحة .

٥) Chakravarti المرجع السابق ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

٦) المرجع السابق ص ٢١٠ ، ٢١٢ .

٧) Robins في A short history ص ١٣٨ .

هو هل الكلمة ذات المعنى المتعدد تعد من النوع الذي يسمى بالـ polysemous أو الـ homophonous (١) ، وهو خلاف لم يحل حتى الآن(٢) . وذكروا بعض الأسباب التي تؤدي إلى تغيير المعنى مثل القياس والاستعارة وتوسيع المعنى (٣) .

* * *

١) يراد بالنوع الأول ما تكتسب فيه الكلمة الواحدة أكثر من معنى وبالثاني ما يحدث من اتفاق في الصيغة لكلمتين لا علاقة بينهما .

٢) Robins المرجع السابق ص ١٣٨ .

٣) chakravarti المرجع السابق ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٣٩٢ وما بعدها .

الباب الثاني

اثر الدراسات اللغوية الهندية
على اللغويين العرب

الفصل الأول

الصِّلات بين الهنود والعرب

لا مجال للشك في وجود صلات قديمة بين الهنود والعرب ، يرجع بعض منها إلى فترة ما قبل الإسلام ، وبعض ثان إلى فترة ما بعد الإسلام وقبل فتح الهند ، ومعظمها إلى ما بعد الإسلام وبعد فتح الهند .

وقد كانت هناك في العصر الجاهلي ثلاث طرق رئيسية تربط الهند بالجزيرة العربية : طريق بري وطريقان بحريان . أما الطريق البري فكان يصل الهند بأهم مراكز الشرق كسمرقند ودمشق وبغداد . وأما الطريقان البحريان فكان أحدهما ينتهي إلى موانيء الخليج الفارسي وثانيهما يدور حول بلاد العرب ويبلغ موانيء البحر الأحمر (١) . ومن مظاهر العلاقات الوثيقة بين الهند والعرب في ذلك الوقت « أننا نجد عشرات من الكلمات الهندية في الشئون الاقتصادية والاجتماعية والتجارية قد أخذت طريقها إلى اللغة العربية وانضمت إليها وعربت فيها ، مثل الموز ، وأصله في السنسكريتية موجا Mocha .. والصندل ، وأصله في السنسكريتية جندن Chandan . والفلفل ، وأصله في

---

١) انظر حضارة الهند ص ٢٣٧ ، وحضارة العرب ص ٣٣٥ ، ٥٥٤ ، ومسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، وتاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص ١٧ ، ١٨ .

السنسكريتية ببيلي وما إلى ذلك » . (١) وشهرة السيوف الهندية وإطلاق أسماء المهند والهندي والهندواني على السيف لا يحتاج إلى تعليق (٢) . كذلك عرف عرب الجاهلية أنواعاً من الأدوية الهندية كانوا يتطببون بها ، كاستخدام الذريرة لعلاج أورام الكبد والمعدة والقلب ، واستخدام العود الهندي والهليلج وغيرهما في علاج بعض الأمراض (٣).

وزادت هذه الصلة توثقاً بعد مجيء الإسلام حتّى من قبل فتح الهند . يقول غوستاف لوبون : « بدأ ظهور العرب في الهند منذ السنة الأولى للهجرة (٦٣٧ م) ، فقد خرجت أساطيل عربية من عُمان والبحرين ، وتقدمت إلى مصابّ السند . ثم أدى ملك كابل الجزية إلى العرب سنة ٦٦٤ » (٤) ويقول محمد إسماعيل الندوي : « كان لمالابار في ساحل شرق الهند شرف السبق للتعرف على الإسلام واعتناقه ، حتّى قبل دخول الجيوش الإسلامية للهند . ويذكر أن طائفة من العرب المسلمين وفدوا إلى مالابار في طريق بحثهم عن مكان نزول آدم أبي البشر ، لما يقال من أنه نزل في الهند أو في سيلان . فلما بلغ ذلك ملك مالابار دعاهم إليه واستضافهم وأحلهم منزلة كبيرة في بلاطه ، ثم عرف منهم أن نبياً بعث في بلاد العرب دعا الناس إلى الإسلام ، وجاء بمعجزات كبيرة ... فتشوق الملك إلى الإسلام وإلى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم كما آمن به وأخفى أمره . ثم استعد للسفر إلى بلاد العرب برفقة هؤلاء العرب»(٥).

---

١) تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية للندوي ص٣٢،٣٣ . وانظر المستشرقون ٨٢١١.

٢) في لسان العرب مادة هند : هند السيف شحذه وأصل التهنيد عمل الهند . ويقال سيف مهند وهندي وهندواني إذا عمل ببلاد الهند وأحكم عمله .

٣) الندوي ص ٣٤ ، ٣٥ . ولكن جاء في لسان العرب مادة ذ ر ر : والذريرة فتات من قصب الطيب الذي يجاء به من الهند . وفي حديث عائشة : طيبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه بذريرة ...

٤) حضارة العرب ص ١٨٥ . وعام ٦٦٤ ميلادية يعادل ٤٣ هجرية .

٥) الندوي ص ٣٧ ، ٣٨ .

وبذلت محاولات إسلامية كثيرة لفتح الهند طوال القرن الأول الهجري ولكن لم يأت دور فتحها والزحف عليها إلا في عصر الوليد بن عبد الملك وبأمر من حاكمه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، الذي أسند هذه المهمة إلى محمد بن القاسم الثقفي فبدأ عملياتها عام ٩٠ هجرية (١) ، وافتتحها عام ٩٤ هجرية (٢) . ويرى غوستاف لوبون أن كل ما حدث من غزوات للهند في القرون الأربعة الأولى للهجرة لم يكن سوى غارات موفقة ، حيث لم تسفر عن استقرار دائم ، ويعتبر الغزو الحقيقي للهند ما تم على يد محمود الغزنوي في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي (٣) . ومهما يكن من شيء فقد « انتشر الإسلام بسرعة مذهلة في أنحاء ربوع الهند ، ثم توالت الوفود العربية على بلاد السند على مر السنين » ، وكان للقدوة الحسنة التي قدمها محمد بن القاسم ، والمعاملة الطيبة التي اتصف بها أكبر الأثر في دخول الهنود في دين الله أفواجاً (٤) . وصار غربي الهند منذ القرن الثامن على صلة وثيقة بالعالم العربي عن طريق التجارة والعلاقات الثقافية والمبشرين الذين نشروا الديانة الإسلامية في الهند(٥) .

وحين قويت الصلة بين الهنود والعرب ، وتوغل المسلمون في بلاد الهند ، وجدوا حضارة قديمة أوغل في القدم من حضارتهم ، فاتجهت أنظارهم إليها ، وحاولوا الاستفادة بها ، ونقل ما يرونه مفيداً منها إلى اللغة العربية . ولم يكد يأتي العصر العباسي حتى تدفقت الهنديات على بلاد الخلفاء في بغداد ، وامتلأت بهن الأسواق والندوات ، ودخلن بيوت العرب كسيدات ومربيات

---

١) تاريخ الطبري – أحداث سنة ٩٠ ص ١٢٠٠ .

٢) المرجع – أحداث سنة ٩٤ ص ١٢٥٦ .

٣) حضارة الهند ص ٢١٧ . وانظر The Encyclopaedia of Islam مادة India .

٤) الندوي ص ٤٠ ، ٤١ .

٥) شجرة الحضارة ٣ / ١٩٨ .

للأطفال ومغنيات ومطربات في بلاط الملوك والأمراء . كذلك تدفقت أفواج المماليك الهنود على قصور الملوك وبيوت الأمراء في بغداد . وزد على ذلك أولئك الهنود الأحرار الذين استوطنوا البلاد العربية وتزوجوا العربيات . ونتج عن هذا التمازج الدموي علماء وأدباء وخبراء سياسيون (١) .

ولا أدل على شدة الارتباط بين العرب والهنود وإلف كل منهما لغة الآخر وثقافته ، من تلك القصة التي وقعت في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، وكان بطلها عيسى بن عمر الثقفي النحوي البصري المتوفي سنة ١٤٩ هـ . فهم يحكون أن عيسى بن عمر كان من المولعين بالغريب النادر من ألفاظ اللغة ، ويحكون أنه سقط ذات يوم في سوق البصرة مغشياً عليه ، ودار الناس حوله يقولون مصروع ، فبين قارىء ومتعوذ من الجان . فلما أفاق من غشيته أمر الناس أن ينفضوا من حوله بلغة حشاها بالغريب من الألفاظ وحوشي الكلام ، حتى إن الناس لم يفهموه ، إذ قال لهم : ما لكم تكأكأتم عليّ تكأكأكم على ذي جنة افرنقعوا عني . فعلق أحد الحاضرين بقوله : « إن جِنِّيَّته تتكلم بالهندية » (٢) .

ويهمنا الآن بوجه خاص أن نستعرض في إيجاز وتركيز أهم صور النشاط الثقافي الهندي ، التي فتح العرب أعينهم عليها ، وربما يكونون قد أفادوا منها :

١) وأول شيء نشير إليه أدب الهنود المتمثل في كتب « الفيدا » المقدسة ثم القصائد الحماسية الكبرى ، وأخيراً ما تركوه من أمثال وقصص وأساطير . وتعد قصائدهم الحماسية المعروفة باسم « المهابهارتا » من أضخم آثار العالم الأدبية ، إذ تشتمل على ٢١٥ ألف بيت من الشعر (٣) ، وتشغل ١٥ مجلداً

---

١) الندوي ص ٤٦ وما بعدها .

٢) وفيات الأعيان ٣/١٥٤ – ١٥٦ .

٣) في Encyclopaedia Britannica مادة مهابهاراتا أن حجمها يبلغ ثمانية أضعاف حجم الإلياذة والأوديسة مجتمعتين .

عادياً يبلغ مجموع صفحاتها ٧٥ ألف صفحة . ويرجع تاريخ أقدم هذه القصائد إلى حوالي القرن السابع قبل الميلاد وأحدثها إلى حوالي القرن الثالث الميلادي . وللمهابهارتا أهمية عظمى عند الهنود فقد روى أن كتب « الفيدا » الأربعة وضعت في كفة ميزان ، وأن المهابهارتا وضعت في الكفة الأخرى أمام الآلهة فرجحت كفة المهابهارتا . وتتضمن هذه القصائد شعراً رائعاً يمكن قياسه بأجمل الأشعار الهوميروسية ، بل إن أدبها أرقى من أدب الإلياذة والأوديسة . ولهذه الأشعار صبغة أرستقراطية كهنوتية فلم يذكر فيها سوى الآلهة والكهان والملوك . وهي تعتمد على خوارق العادات على الدوام وتظهر الآلهة ظهوراً مستمراً . أما شهرة الهنود بالأمثال والقصص فمشهود بها منذ عرف العالم كله مجموعتهم القصصية الرمزية « بنج تنترا » (كليلة ودمنة) . وهي تتألف من رموز اتخذ فيها الحيوان عامل درس للإنسان . وفي النصف الأول من القرن السادس الميلادي أرسل كسرى أنوشروان الساساني عالماً طبيباً ليترجمها إلى اللغة البهلوية . وعثر أبو جعفر المنصور من بين خرائب المكتبة الفارسية على نسخة منها فأمر بنقلها إلى العربية(١) . كما كان للقصص الهندي تأثير كبير في أعظم مظهر للأدب الشعبي في اللغة العربية منذ العصر العباسي ، ونعني به قصص « ألف ليلة وليلة » (٢) .

وقد أورد ابن النديم قائمة بكتب الهند في الخرافات والأسمار التي ترجمت من الهندية إلى العربية ، ومنها كتاب السندباد الكبير ، والسندباد الصغير ، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم عليه السلام ، وكتاب ديك الهندي في الرجل والمرأة ، وكتاب بيدبا في الحكمة ، وغير ذلك(٣) .

---

١) حضارة الهند ص ٤٤٤ – ٤٧٢ ، والندوي ص ٩٧ وما بعدها وكذلك ص ١١٥ .

٢) الندوي ص ١١٩ . وانظر تفصيلات أخرى للموضوع ص ١١٩ – ١٢٤ وانظر كذلك : المستشرقون ١/٨٢ .

٣) الفهرست ص ٣٠٥ تحت عنوان : أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث .

وفي سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦م) ترجم أبو الحسن علي بن محمد الهلبّي أمين مكتبة جرجان عملا من العربية إلى الفارسية ، وأهداه إلى قائد جيوش الديلم . وقد جاء هذا العمل العربي نفسه من الهندية ، وهو عمل تاريخي كان يحمل اسم Mahabharta . وترجم هذا العمل من الهندية (١) إلى العربية أبو صالح بن صعيب بن جامع الذي لا يعرف تاريخه بالتحديد ، ولكن على أي حال لا يمكن أن يتجاوز عمله عام ١٠٢٦ الذي تمت فيه الترجمة من العربية إلى الفارسية (٢) .

ويتصل بجانب الأدب والشعر علم العروض أو أوزان الشعر . وقد بين البيروني أهميته عند الهنود بقوله : « لا يستغنون عنه فإن كتبهم منظومة وقصدهم فيها أن يسهل استظهارها » (٣) . ثم حاول أن يشرح طرق أوزانهم ، وأن اعترف بأنه لم يطلع على أي شيء من كتبهم في أوزان الشعر(٤) . ويفهم مما ذكره Ingalls عن الشعر الهندي أن نماذجهم الموسيقية في غاية التعقيد ، وإن عندهم حوالي خمسين نموذجاً وزنياً (٥) . وهناك نماذج خاصة تخضع لها أوزان الفيدا ، وتتنوع وحداتها بين المقطع الشعري verse أوالموشحة stanza أو الترنيمة hymn (٦) . ومن المحتمل أن يكون الخليل بن أحمد قد اطلع على هذه الموازين أو سمع بها (٧) .

كذلك يتصل بجانب الأدب ما كتبه الهنود في البلاغة والبديع . يقول الشيخ

---

١) ربما كان السنسكريتية ، ولكن الأرجح أنها من لهجة بركريتية Prakrit
٢) An early Arabic version of the mahabharta story ص ١٧ ، ١٨ .
٣) ص ١٠٥ .
٤) ص ١٠٦ وما بعدها . وانظر الندوي ص ١١٥ .
٥) Sanskrit poetry ص ٨ .
٦) Vedic Metre ص ٧ – ٩ .
٧) الندوي ص ١٤٤ .

عبد الحي الحسني : « وأما أهل الهند قبل الإسلام فإنهم دونوا هذا العلم بلسانهم واستخرجوا من الكلام أنواعاً من البديع ، ومنها ما هو مشترك بين العرب وبينهم كالتورية وحسن التعليل وتجاهل العارف .. والاستعارة والتشبيه والجناس والسجع وغيرها .. » (١) ولا يستبعد الأستاذ الندوي أن يكون العرب قد اطلعوا على بعض تلك الفنون عن طريق الكتب الهندية المترجمة إبان فجر النهضة الأدبية العربية(٢) .

٢) كذلك ترك الهنود تراثاً هائلا في مجالات الفلسفة والتصوف واللاهوت وما يرتبط بها من معارف . وتسربت الفلسفة الهندية إلى المناطق العربية منذ عصر مبكر . ومن كتب هذا النوع التي تمت ترجمتها في وقت مبكر إلى اللغة العربية كتابا « بوذاسف » و « بلوهر » . (٣) . أما أول الكتابين فيتناول حياة بوذا وتاريخه وجهاده ، وأما ثانيهما فقد نال إعجاب كثير من الطوائف حتى نسبه المسيحيون إلى قديس لهم ، كما زعمت طائفة من الشيعة أنه لواحد من أئمتهم . وانعكست آراء الهنود اللاهوتية في بعض الفرق الإسلامية كالنظامية من المعتزلة ، وكالبيانية والخطابية والراوندية ، كما استفاد منها « إخوان الصفا »(٤) .

ويقال إن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتي له بعقاقير موجودة في بلادهم ، ويكتب له عن أديانهم ، فكتب له كتاباً عن الهند وأديانها ، واستفاد ابن النديم في حديثه عن أديان الهند من هذا الكتاب (٥) .

كذلك ظهرت المفاهيم الصوفية الهندية في التصوف الإسلامي ، وهناك

١) مقتبس في الندوي ص ١١٥ .
٢) المرجع والصفحة .
٣) الفهرست ص ٣٠٥ ، ومزيد من التفصيل في الندوي ص ٨٧ وما بعدها .
٤) الندوي ص ٨٧ وما بعدها .
٥) المرجع السابق ص ٨٩ .

دلائل تشير إلى اتصال المتصوفين العرب مباشرة بالهند كالذي ذكره أحمد أمين عن الحسين بن منصور الحلاج الذي ولد سنة ٢٤٤ ﻫ ، وزار ضمن ما زار في رحلاته بلاد الهند ، وتعلم هناك السحر الهندي (١) .

ولم يقصر الهنود منذ القدم كذلك في دراسة المنطق ، وقد قسم العلماء عصور دراسته إلى فترات ثلاث هي :

أ ــ القديمة من سنة ٦٠٠ ق م إلى ٤٠٠ م .
ب ــ المتوسطة من سنة ٤٠٠ م إلى ١٢٠٠ م .
ج ــ الحديثة من سنة ١٢٠٠ م إلى ١٨٥٠ م .

واعتبر العلماء عام ٤٠٠ م بداية عصر جديد في دراسة المنطق ، يتميز بأخذ الهنود وبخاصة البوذيين مشاكل المنطق بشكل جدي ، ومعالجتهم لها بطريقة علمية ، وإن ظلت دراستهم للمنطق مرتبطة بدراستهم للفلسفة . وبمجيء عام ٥٠٠ م بدأت فترة جديدة حينما انفصل المنطق من الفلسفة ، وأعطاه الكتاب البوذيون كثيراً من اهتمامهم (٢) .

٣) أما أبحاث الهنود في ميادين العلوم المختلفة فكانت كثيرة ومتنوعة ، واستمد بعضها من علوم اليونان التي وصلتهم إما عن طريق الإسكندرية ، أو نتيجة غزو الإسكندر لبلادهم بين عامي ٣٢٧ ــ ٣٢٥ ق م ، أو من بعض الطرق الأخرى (٣) .

ومن أشهر الفروع العلمية التي تفوقوا فيها الفلك والحساب والطب . وقد

---

١) ظهر الإسلام ٦٩/٢ ، ٧٠ والندوي ص ٩٣ ، ٩٤ .

٢) Hitory of the Mediaeval School of Indian logic ص ١٧ ــ ٢٠ من المقدمة . وصفحة ٧٨ . وانظر مزيداً من التفصيلات وبياناً بأنواع الأقيسة المنطقية عند الهنود ص ٦٠ وما بعدها .

٣) مسالك الثقافة الإغريقية ص ١٤٣ ، ١٦٦ وشجرة الحضارة ١٦٨/٣ ، ١٦٩ .

لاحظ العلماء تطابقاً بين الهنود والعرب في تقسيم منازل القمر ، فبعضهم مثل وليم جونز نفى وجود صلة بين العملين ، وبعضهم رأى أن العرب قد تأثروا بالهنود ، وبعضهم رأى أن العرب والهنود كليهما قد اعتمدا على التقسيم الصيني الذي كان معروفاً منذ عام ٢٣٥٧ قم. وعدل عام ١١٠٠ ق.م (١) .

ومن المعروف أنه حوالي عام ١٥٦ هـ أحضر رحالة هندي إلى بغداد كتباً في الحساب والفلك ، وقام بترجمة الأخيرة إبراهيم الفزاري ، وبذلك فتح باباً جديداً من الاهتمام بالدراسات الفلكية . وجاء بعده بقليل محمد بن موسى الخوارزمي فمزج النظامين الفلكيين الهندي واليوناني ، وبعدها أخذ هذا العلم مكاناً بارزاً في ميدان الدراسات العربية(٢) .

ومن المعروف كذلك أن العرب قاموا بترجمة كتاب « السند هند » إلى العربية في وقت مبكر قد يكون في عهد المنصور مؤسس بغداد ، وقد يكون بعد ذلك بقليل . ويعد كتاب « السند هند » أول كتاب في الفلك يعرفه العرب. وكان يحتوي إلى جانب معلوماته الفلكية على معلومات جغرافية ورياضية ، ولكن لم يستطع العرب أن يفهموه أول الأمر حيث لم تكن لديهم المعلومات الكافية في الهندسة والفلك (٣) .

ويعتبر أوليري عمل الهنود في الحساب ذا أهمية كبرى ؛ إذ بواسطته عرف العرب الأرقام الهندية التي أصبحت فيما بعد أرقاماً عربية ، وكذلك النظام العشري للعد الذي جعل تقدم الحساب ممكناً وسهلا(٤) . ويرى الندوي

---

١) On the Indian and Arabian Division of the Zodiac ص ٢٨١-٢٨٣ .

٢) Arabic Thought and its Place in History ص ١٠٨و١٠٩ .

٣) مسالك الثقافة الإغريقية ص ١٥٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، والندوي ص ٧٨ وما بعدها ، وضحى الإسلام ٢٤٣/١ .

٤) Arabic thought ص ١٠٩ .

أن من أهم الخدمات الجليلة التي قدمتها الهند إلى الحضارة الإنسانية اختراع نظريات خالدة في الحساب والجبر والهندسة تلقفتها الأمة العربية إبان مجدها وحضارتها، ثم سلمتها في عهد تخلفها إلى الأمة الأوربية التي استطاعت بها أن تصل إلى ذروة المجد والكمال في العلم (١) .

أما في مجال الطب فقد عرف العرب الطب الهندي في مدينة جنديسابور ، واستعمل أبو الطب العربي أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١ — ٣١٤) منهجاً مزيجاً من النظامين الهندي واليوناني (٢) . واتصلت بغداد في عصر هارون الرشيد بأشهر أطباء الهنود البارعين ، وكان هارون الرشيد إذا مرض هو أو أحد أفراد أسرته يطلب أطباء من الهند . ونتيجة للثقة في طب الهنود قام العرب بترجمة أشهر كتب الهنود الطبية (٣) .

* *

---

١) ص ٨٠ .

٢) Arabic thought ص ١١٠ ، ١١١ .

٣) الندوي ص ٨٦ ، ٨٧ . وانظر كذلك : المستشرقون ٨٢/١. والفهرست لابن النديم ص ٣٠٣ ، وضحى الاسلام ٢٤٤/١ .

الفصل الثاني
نقاط الإتفاق في البحث اللغوي بين العرب والهنود

من يتتبع جهود كل من الهنود والعرب القدماء في مجال الدرس اللغوي تقع عيناه على بعض نقاط يتفق فيها الطرفان اتفاقاً كلياً أو جزئياً . وسنحاول نحن في هذا الفصل أن نبلور نقاط الاتفاق هذه ، دون أن نحاول بحث مشكلة التأثير والتأثر ، فمكان ذلك الفصل التالي إن شاء الله .

الدراسات الأصواتية :

من أهم النقاط التي بحثها العرب ونجد لها نظيراً عند الهنود ما يأتي :

١) وضع العرب أبجدية صوتية للغة العربية رتبت أصواتها بحسب المخارج ابتداء من أقصاها في الحلق حتى الشفتين . وقد وضع الخليل بن أحمد أول أبجدية من هذا النوع عرفتها اللغة العربية تشتمل على تسعة وعشرين رمزا ؛ وسار فيها على النحو التالي :

ع ح هـ خ غ ـ ق ك ـ ج ش ض ـ ص س ز ـ ط د ت ـ ظ ث ذ ـ ر ل ن ـ ف ب م ـ وا ى همزة (١) .

---

١) العين للخليل ١/٥٣ .

ولكن سيبويه في كتابه قد خالف أستاذه مخالفات جوهرية إذ رتبها على النحو التالي :

همزة ا هـ ع ح غ خ ك ق ض ج ش ي ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و .

أما ترتيب ابن جني فقد جاء موافقاً في معظمه لترتيب سيبويه ، فيما عدا وضعه القاف قبل الكاف ، وتأخيره الضاد إلى ما بعد الياء (١) .

٢) الحديث عن أعضاء النطق وتسمية كل منها مثل الرئة والحنجرة والحلق واللسان والشفتين ، وتقسيم الحلق إلى أقصى ووسط وأدنى ، واللسان إلى أصل وأقصى ووسط وظهر وحافة وطرف (٢) .

كذلك حديثهم عن مخارج الأصوات بطريقة تفصيلية ، وتصنيف الأصوات بحسب المكان الذي يتم فيه التحكم في الهواء الخارج من الرئتين . وقد حصر الخليل المخارج في ثمانية (٣) ، وبعضهم حدد مخارج الأصوات بطريقة أدق فوصل بالرقم إلى ستة عشر أو سبعة عشر مثل سيبويه وابن جني وعلماء التجويد (٤) . وقد شبه ابن جني مجرى الهواء في الحلق والفم بالناي قائلا : « إذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات ، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه . فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة ، كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة » (٥) .

---

١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١/٥٠ ، ٥١ .

٢) دروس في علم الأصوات العربية لكانتينو ص ١٨ ، ١٩ .

٣) العين للخليل ١/٦٥ .

٤) سر صناعة الإعراب ١/٥٢ ، ٥٣ .

٥) المرجع ص ٩ .

٣) توصل العرب إلى أن طريقة التحكم في مجرى الهواء هامة في إنتاج الصوت . وقد قسموا الأصوات على أساسها إلى شديدة ورخوة ومتوسطة . وفسروا الشديد بأنه الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه ، والرخو بأنه الذي يجري فيه الصوت ، ووضعوا قائمة بأصوات كل نوع بطريقة يوافقهم عليها في جملتها التحليل الصوتي الحديث (١) .

٤) اهتداؤهم إلى وجود رنين معين يصحب نطق الأصوات المجهورة . ولذا قسموا الأصوات من حيث وجود هذا الرنين أو عدم وجوده إلى مجهورة ومهموسة ، ووضعوا لنا قائمة بكل نوع (٢) . وقد ذكر أبو الحسن الأخفش أنه سأل سيبويه عن الفرق بين المهموس والمجهور فقال له : « المهموس إذا أخفيته ثم كررته أمكنه ذلك ، وأما المجهور فلا يمكنك فيه . ثم كرر سيبويه التاء بلسانه وأخفى فقال : ألا ترى كيف يمكن ؟ وكرر الطاء والدال وهما من مخرج التاء (٣) فلم يمكن . قال : وإنما فرق بين المجهور والمهموس أنك لا تصل إلى تبين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذي يخرج من الصدر . فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ويجري في الحلق .. أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها .. والدليل على ذلك أنك إذا أخفيت همست بهذه الحروف ولا تصل إلى ذلك في المجهور .. » (٤) .

ويعقب الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس على عبارة سيبويه بقوله : إنها تتضمن آراء قيمة في الدراسة الصوتية تتفق مع أحدث النظريات الحديثة إلى حد كبير .

---

١) المرجع ص ٦٩ ، ٧٠ ، وكانتينو ص ٣٥ ، ٣٦ .

٢) سر صناعة الاعراب ١/٦٨ ، ٦٩ .

٣) الطاء القديمة كانت مجهورة وكانت تعد مفخم الدال .

٤) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ص ٨٩ نقلا عن مخطوطة دار الكتب المصرية لشرح السيرافي للكتاب .

فسيبويه يرشدنا هنا إلى وسيلة أخرى لتمييز المهموس من المجهور ، وذلك عن طريق إخفاء الصوت ، وأنه يمكن هذا الإخفاء في المهموسات دون أن تفقد معالمها . أما الإخفاء في المجهورات فيترتب عليه أن الحروف تضيع صفتها المميزة ، فلا نسمع الدال دالا حينئذ وإنما نسمع صوتاً آخر هو التاء .. وكذلك يحدثنا سيبويه عما يسميه بصوت الصدر ، ويراه صفة مميزة للمجهور . ولعل هذا الصوت هو صدى الذبذبات التي تحدث في الوترين الصوتيين بالحنجرة(١) .

٥) تقسيم الأصوات إلى صحيحة ومعتلة على أساس اتساع المخرج مع العلة دون الصحيحة . كما قسموها إلى مطبقة ومنفتحة أو مستعلية ومنخفضة ، واهتدوا أيضاً إلى السمات الخاصة التي تميز بعض الأصوات ، مثل اللام التي وصفوها بأنها حرف منحرف ، والراء التي وصفوها بأنها حرف مكرر(٢) . كذلك ميزوا في أصوات العلة بين الفتحة والألف من ناحية ، والكسرة والياء ، والضمة والواو من ناحية أخرى . يقول ابن جني : « والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو : وأوسعها وألينها الألف ، إلا أن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو . والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو . والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاثة الأحوال مختلف الأشكال . أما الألف فتجد الحلق والفم معهما منفتحين .. وأما الياء فتجد الأضراس معها سفلا وعلوا قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته .. وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس » (٣) .

٦) الحديث عن أطوال أصوات العلة وتقسيمها إلى قصيرة وطويلة وأطول. يقول ابن جني : « اعلم ان الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهي الألف

---

١) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس ص ٩٠ .

٢) سر صناعة الاعراب ٩/١ ، ٨٠ ، ٧١ ، ٧٢

٣) المرجع ص ٨ ، ٩ .

والياء والواو . فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث وهي الكسرة والفتحة والضمة . فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو . وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة . ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف توام كوامل قد تجدهن في بعض الأحيان أطول وأتم منهن في بعض ، وذلك قولك يخاف وينام ويسير ويطير ويقوم ويسوم ؛ فتجد فيهن امتداداً واستطالة ما ، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة أو الحرف المدغم ازددن طولا وامتداداً وذلك نحو يشاء .. وتقول مع الإدغام شابة ودابة .. » (١) ويتحدث علماء التجويد عن ثلاث درجات لقياس العلة الطويلة ، وهي المد والتوسط والقصر . ونسبة الممدود إلى القصير ٣ : ٢ ، وقيل ٢ : ١ ، وقيل ٥ : ٢ ، وقيل ٥ : ٤ ، وقيل ٣ : ١ (٢) .

٧) تعريف بعض القدماء الصوت الساكن (الصامت) بأنه الذي لا يمكن نطقه بدون حركة (٣) . وهذا هو السبب في أن الخليل بن أحمد حينما أراد ذوق الحروف « كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف ، نحو : أبْ ، أتْ ، أحْ ، أعْ ، أغْ ... » (٤) . وقريب منه قول ابن جني « وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكناً .. ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله لأن الساكن لا يمكن الابتداء به ، فتقول : اك ، اق ، اج ، وكذلك سائر الحروف » (٥) .

٨) الموازنة بين الحركات في الثقل والخفة واعتبارهم الفتحة أخف الحركات.

---

١) المرجع ص ١٩ ، ٢٠ .
٢) فتح الأقفال ص ١٣ .
٣) بشر : الأصوات ص ٩٤ .
٤) العين ٥٢/١ .
٥) بشر : الأصوات ص ١٠٠ .

يقول سيبويه : « وأما ما توالت فيه الفتحتان فإنهم لا يسكنون منه لأن الفتح أخف عليهم من الضم والكسر .. » (١) . ويقول الفارابي اللغوي : « الفتحة أخف الحركات » (٢) ، ويرى ابن جني كذلك أن الفتحة أخف الحركات وأن السكون مضارع للفتحة في الخفة (٣) .

الدراسات النحوية والصرفية :

من بين النقاط التي تناولها العرب بالدرس ، أو التقسيمات التي ذكروها وهي موجودة عند الهنود ما يأتي :

١) تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل .

٢) تعريف الكلمة بأنها اللفظ الموضوع لمعنى مفرد ، أو بأنها اللفظ المستقل الدال بالوضع (٤) .

٣) التمييز بين الحرف الأصلي والحرف الزائد في الكلمة عن طريق القول بأن ما يثبت في تصاريف الكلمة المختلفة يكون أصلياً ، وما يسقط في بعض التصاريف يكون زائداً . وكذلك الحديث التفصيلي عن أحرف الزيادة وعددها وأماكن وقوعها .

٤) اختلافهم في موضوع الاشتقاق فمنهم من ضيقه ومنهم من وسعه حتى أخذ يلتمس وجهاً لكل لفظ ولو كان أعجمياً أو معرباً . ويظهر أثر هذا الخلاف في الأعلام فمنهم من اعتبرها كلها مشتقة ومنهم من قسمها إلى منقول ومرتجل .

---

١) الكتاب ٢/٢٥٨ .

٢) مقدمة ديوان الأدب ص ١٤٦ .

٣) الخصائص ١/٥٩ .

٤) انظر شرح ابن عقيل للألفية مع شرح السيوطي المسمى البهجة المرضية ص ٣ . ويلاحظ أن سيبويه لم يعرف الاسم وانما اكتفى بالتمثيل له قائلا : « والاسم رجل وفرس وحائط » . ولكن قسم سيبويه الكلمة في صدر كتابه الأقسام الثلاثة السابقة .

٥) الخلاف حول الحروف ، هل لها معان في ذاتها مستقلة عن الأسماء والأفعال أو لا .

٦) إفراد نوع من الأسماء له خصائص الأفعال باسم خاص به وهو « اسم الفعل » مثل هيهات وشتان وَوَىْ وأفّ وصه ومه .

٧) النظر إلى نوع الحروف من حيث الصحة والاعتلال حين الحديث عن أصول الكلمات وإفراد كل بالذكر .

المعجم :

أهم نقاط الالتقاء في هذا المجال ما يأتي :

١) تأليف كتب منذ وقت مبكر في المترادفات والمشترك اللفظي . أما كتب المترادفات فمن أشهرها « الألفاظ » لابن السكيت ، و« الألفاظ الكتابية » للهمذاني (توفي ٣٢٠ هـ) و« جواهر الألفاظ » لقدامة (توفي ٣٣٧ هـ) و « كتاب الألفاظ المترادفة والمتقاربة في المعنى » للرماني (توفي ٣٨٤) (١) . وأما كتب المشترك اللفظي فمن أشهرها : كتاب الأصمعي ومنه نقول كثيرة في مزهر السيوطي ، وكتاب أبي عبيد المسمى «كتاب الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى » ، وكتاب أبي العميثل المسمى « كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه » وكتاب كراع المسمى « المنجد فيما اتفق لفظه واختلف معناه » (٢) .

٢) ظهور معاجم مرتبة بحسب الموضوعات ، أو ما يسمى بمعاجم المعاني. وقد بدأ التأليف في هذا النوع من المعاجم في وقت مبكر جداً لا يتجاوز النصف الأول من القرن الثاني . وأول من ينسب له عمل من هذا النوع

---

١) Arabic linguistic studies ص ١٣٥ .

٢) المنجد في اللغة – مقال للدكتور أحمد مختار عمر ص ٩٥ ، ٩٩ – ١٠١ .

شخص اسمه أبو خيرة الأعرابي في الجيل السابق للخليل ، ويحمل كتابه اسم « الصفات » ، ثم تلاه القاسم بن معن الكوفي الذي عاصر الخليل وتوفي عام ١٧٥ هـ واسم كتابه « الغريب المصنف » . ثم توالت كتب الصفات والغريب المصنف إلى أن وضع أبو عبيد القاسم بن سلام كتابه « الغريب المصنف » . وقد توفي أبو عبيد عام ٢٣١ هـ . (١)

٣) ظهور معاجم مرتبة بحسب الأبنية أو الأوزان . وأول معجم كامل يظهر في اللغة العربية بهذا الترتيب هو معجم « ديوان الأدب » للفارابي المتوفي عام ٣٥٠ أو ٣٧٠ هـ . وقد سبق بمعاجم نوعية تناول بعضها أبنية المصادر وبعضها أبنية الأفعال (٢) .

٤) ظهور معاجم للألفاظ مرتبة بحسب الحروف الأخيرة . وأول معجم رأيته يسلك هذا المسلك معجم « ديوان الأدب » للفارابي السابق ذكره ثم تلاه الجوهري في معجمه « تاج اللغة وصحح العربية » وهو من علماء القرن الرابع كذلك .

بحوث متنوعة في فقه اللغة :

من أبرز ما وجدته عند علماء اللغة العرب وقد ناقشه من قبلهم علماء الهند ما يأتي :

١) القول بقداسة اللغة العربية ، وتفضيلها على سائر اللغات . ومن ذلك قول ابن فارس : « لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها » (٣) وقول الفارابي اللغوي : « وأما اللسان فهو كلام جيران الله في دار الخلد ، وهو المنزه من

---

١) محاضرات في علم اللغة ص ٢٠٠ ، ٢٢٣ .

٢) الفارابي اللغوي . وبوجه الخصوص صفحة ٤٦ ، ٤٧ .

٣) النصوص اللغوية ص١١٩ .

بين الألسنة من كل نقيصة ، والمعلي على كل خسيسة ، والمهذب مما يهجن أو يستشنع »(١) .

٢) القول بوجود أماكن توجد فيها اللغة العربية النقية أو الفصيحة . ومن أجل ذلك كان العرب القدماء يحرصون على إرسال أبنائهم إلى الصحراء لصقل ألسنتهم ، وكان الرواة واللغويون يذهبون إلى البوادي ، ويلتقون بالأعراب ليسجلوا اللغة عنهم . وقد تبلور هذا الاتجاه في شكل نظرية على يد الفارابي اللغوي الذي وضع لنا قائمة محددة بالقبائل التي يستشهد أو لا يستشهد بها وذلك في قوله (٢) : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عما في النفس . والذين نقلت عنهم العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب وفي التصريف . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فلم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم . فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنمر ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز

---

١) مقدمة ديوان الأدب ص ١٣١ .

٢) المزهر ٢١١/١ ، ٢١٢ ، والاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي .

لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .. » .

٣) خلافهم حول نشأة اللغة بين القول بالتوقيف أو الاصطلاح . أما أصحاب النظرية الأولى فيقولون إنها وحي من الله علمها لآدم مباشرة . وأما أصحاب النظرية الثانية فيرون أن الانسان هو واضع لغته عن طريق الاتفاق والاصطلاح. وقد لخص ابن جني النظريتين في قوله : « أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف . إلا أن أبا علي (الفارسي) رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله ، واحتجَّ بقوله سبحانه : وعلم آدم الأسماء كلها » (١) .

٤) النظرية التي نادى بها بعضهم ، والقائلة بوحدة المعنى مع مشابهة بين الكلمتين في حرفين . ومن ذلك رد القاف والطاء إلى معنى القطع ، ولا يهم ما يثلثهما . وكذلك رد النون والفاء إلى معنى الخروج والانتقال دون نظر إلى الحرف الثالث (٢) . بل إن بعضهم ربط المعنى بحرفين واعتبر الثالث منوعاً للمعنى ومخصصاً له دون تقيد بموضع الحرف الثالث في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرها (٣) . وعد ابن جني من خصائص العربية تقارب الحروف لتقارب المعاني ، واعتبر منه أزّ وهزّ — عسف وأسف — خمس وحبس . وأكثر من هذا أنه التمس معنى يجمع الكلمتين اللتين اتفقتا في حرف واحد وتقاربتا في حرفين نحو السحيل والصهيل (٤) .

---

١) انظر قضايا لغوية للدكتور بشر ص ١٣١ وما بعدها .
٢) انظر في تفصيل ذلك فقه اللغة لمحمد المبارك ص ٨٧ وما بعدها .
٣) فقه اللغة لمحمد المبارك ص ٩٥ .
٤) انظر « باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني » من كتاب الخصائص لابن جني في كتاب « النصوص اللغوية » ص ٦٢ وما بعدها .

الفصل الثالث

احتمالات التأثير والتأثر

ليس من السهل القطع برأي في كثير من قضايا التأثير والتأثر ، وبخاصة إذا كانت القضية المطروحة للمناقشة قد مضى عليها مئات السنين . كما أن الباحث المدقق لا يستطيع الحكم بسهولة — كما يفعل بعضهم — على أخذ العرب من الهنود لمجرد وجود نوع من التشابه بين عمليهما . فالعقل البشري هو العقل البشري في أي بقعة من أنحاء العالم ، وما يهتدي إليه العالم في بلد قد يهتدي إليه العالم في بلد آخر دون أن يطلع على ما انتهى إليه غيره . وقد يتشابه العملان أو يتطابقان ويظل كل منهما أصيلا في ذاته . بل إن كثيراً من الأحكام التي أطلقت خاصة بقضايا التأثير والتأثر قد أثبتت الأيام خطأها ، ومنها ما يتعلق بالصلة بين الهنود والعرب . يقول غوستاف لوبون : « ما كان يقال حول قدم علم الفلك الهندوسي ودقته من الأفكار ، قد أهمل تجاه الدراسات التامة ، فأصبحت هذه الأفكار غير جديرة بعناية أحد » (١) . ويقول: «نقل المسلمون إلى الهند والصين قسماً كبيراً من من المعارف العلمية التي عدها الأوربيون من أصل هندوسي أو صيني فيما بعد » (٢) .

---

١) حضارة الهند ص ٥٤٧ .

٢) حضارة العرب ص ٥٦٤ .

ولنبدأ بعرض وجهات النظر المختلفة حول التأثير الهندي على اللغويين العرب ثم نعقب برأينا نحن . وتتلخص الآراء التي قدمت في الموضوع حتى الآن في ثلاثة هي :

١) الرأي الذي يرجح أو يقطع بوجود تأثير هندي .

٢) الرأي الذي لا يرجح ولا يقطع بوجود تأثير هندي ، ولكن يرى احتمال وجود هذا التأثير .

٣) الرأي الذي ينفي وجود أي تأثير هندي .

أما الرأي الأول فقد تبناه الدكتور عبد الرحمن أيوب بحماس شديد في محاضراته التي ألقاها على طلبة الليسانس بكلية دار العلوم في العام الدراسي ٦٧ – ١٩٦٨ ، والتي يقول فيها : « من الممكن أن نلخص مميزات الدراسات اللغوية الهندية في أمور هي :

١) العناية بدراسة الأصوات ومخارجها .
٢) عدم الاهتمام بالنظريات والتقسيمات العقلية .
٣) الاعتماد على أشكال الألفاظ في تقسيمها إلى أنواع .

وبالنظر إلى كتاب سيبويه – أول كتاب في العربية – نجد أنه ، على العكس من الكتب النحوية المتأخرة ، قد تميز بهذه المميزات الثلاث نفسها . ومن أجل هذا نفسر الاختلاف بين كتاب سيبويه والكتب المتأخرة .. بأن سيبويه قد تأثر في تبويب كتابه بالطريقة الهندية في التأليف ، أما المتأخرون فقد تأثروا بالمنطق الإغريقي » (١) .

وإذا كان الدكتور أيوب يثبت التأثير الهندي في مجال النحو ، فإننا نجد

---

١) محاضرات في علم اللغة ص ٧ .

Haywood يثبته في مجال المعجم ، وذلك إذ يقول : « والآن نسأل : هل من الممكن أن يكون علم مضطرب كهذا قد أثر على العرب ؟ لا بد أن نأخذ في الاعتبار ظهور فارس وخراسان في عمل المعاجم العربية . إن الخليل والجوهري كليهما يقال إنهما ألفا معجميهما هناك . وأكثر من هذا نلمح شبهاً بين ترتيب الأبجدية عند السنسكريتيين والترتيب الهجائي الخاص الذي استعمله الخليل مشوها .. ولكن إلى أي مدى أثر الهنود ؟ من الصعب أن نجيب » (١) . ويقول في مكان آخر : « ربما كان اليونان هم الذين أعطوا العرب فكرة المعجم وكان الهنود هم الذين أعطوهم الأبجدية الصوتية وبعض الأفكار المعجمية الأخرى »(٢) .

ونجد الدكتور شوقي ضيف كذلك من هذا الرأي الذي يثبت التأثير الهندي على معجم الخليل وذلك في قوله : « وقد وضع الخليل معجماً للعربية بترتيب مخارج الحروف متأثراً بالهنود في ترتيب حروف لغتهم » (٣) .

وكذلك تبنى الدكتور محمد إسماعيل الندوي هذا الرأي ، إذ يقول : « لقد أثرت الهند في وضع المناهج للقواميس العربية ، وأول من فعل ذلك الخليل ابن أحمد » (٤) .

وأما الرأي الثاني فقد اختارته دائرة المعارف الإسلامية التي تقول : « كان الخليل أيضاً أول من صنف معجماً عربياً هو كتاب العين . والظاهر أنه رتبه على حروف الهجاء عند نحاة السنسكريتين ، وهي التي تبدأ بحروف

---

١) Arabic lexicography ص ٨ .

٢) المرجع ص ٩ .

٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٣٢ .

٤) تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص ١١٤ .

الحلق حتى تصل إلى حروف الشفة » (١) . وهو رأي الذكتور محمود السعران الذي يقول : « هناك تشابه بين التصنيف العربي للأصوات تبعاً لمكان النطق والتصنيف الهندي الذي أسس قبل العرب بمدة طويلة . وقد اتبع الهنود التقسيم الصوتي الذي يبدأ من الخلف إلى الأمام ، وهو نفس ما فعله العرب » (٢) . ومع ذلك لم يقطع بوجود التأثير الهندي رغم أنه تناول قضية التشابه هذه ،في بحث خاص ملحق برسالته للدكتوراه وعنونه :

« A comparison between the Different Systems of Sound-Classification Presented by the Ancient Indians, Greeks and Arabs ».

ويقول الدكتور السعران في كتاب آخر له : « هل أخذ العرب أصول تصنيف الأصوات ووصفها عن الهنود ؟ وهل تأثروا بهم في ذلك ؟ لا سيما وأن ذلك قد ظهر عند العرب دفعة واحدة وظهر عند سيبويه كاملا ؟ .. إن أخذ العرب عن الهنود في الميادين الصوتية واللغوية عامة ، أو تأثرهم بهم أمر محتمل نظراً ولكنا لا نملك من الأدلة ما يدعونا إلى القطع بأن أخذا أو تأثراً قد حدث في هذا المجال أو ذاك » (٣) .

ويبدو كذلك أن هذا هو رأي الدكتور أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام. فبعد أن ذكر أنه كان للهنود نحو وصرف ، ثم اقتبس ما ذكره البيروني عن أولية النحو عندهم وهو قوله : « إن أحد ملوكهم واسمه سملواهن وبالفصيح سابتاهن كان يوماً في حوض يلاعب فيه نساءه ، فقال لإحداهن : « مَاوَدَ كَنْدَ هي) أي لا ترشي عليّ الماء . فظنت أنه يقول : (مُودَ كندهي) ، أي احملي حلوى . فذهبت فأقبلت به ، فأنكر الملك فعلها ، وعنفت في

١) مادة الخليل بن أحمد .
٢) A Critical Study ص ٣١٦ .
٣) علم اللغة ص ٩٩ .

الجواب وخاشنت فاستوحش الملك لذلك ، وامتنع عن الطعام كعادتهم ، واحتجب إلى أن جاءه أحد علمائهم وسلّى عنه بأن وعده تعليم النحو وتصاريف الكلام . وذهب هذا العالم إلى (مهاديو) مصلياً مسبحاً ، وصائماً متضرعاً إلى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي » (١) — أقول بعد أن اقتبس أحمد أمين نص البيروني هذا عقب عليه بقوله : « وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية . ولعل مما يرجح هذا الظن أن الحكاية العربية مختلفة الأشكال متعددة الرواية . فمن قائل إن علي بن أبي طالب هو الذي أوعز إلى أبي الأسود بوضع النحو ، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ، ومن قائل إنه زياد بن أبيه . ثم من قائل إن سبب الوضع أن قارئاً قرأ « لا يأكله إلا الخاطئين » ، ومن قائل إن قارئاً قرأ « أن الله بريء من المشركين ورسوله » ومن قائل إن ابنة أبي الأسود قالت : « ما أحسنُ السماء » تريد التعجب ، فقال لها : نجومها — يظنها تستفهم — فقالت يا أبت إنما أخبرك ولم أسألك ، فقال لها : اذن فقولي : « ما أحسنَ السماء » .. إلى آخر ما قالوا .. مما يحمل على الشك في القصة . ثم هناك شبه بين ذهاب الهندي إلى مهاديو مصلياً مسبحاً وبين ذهاب أبي الأسود إلى علي بن أبي طالب يسأله المعونة في وضع النحو وهكذا»(٢)

أما أصحاب الرأي الثالث فمنهم بروكلمان الذي يصرح بأنه لا يمكن إثبات التأثير الأجنبي على النحو العربي لا من القواعد اللاتينية ولا من الهندية . ويصرح كذلك بعدم وجود تأثير هندي في علم الأصوات العربية ، وإن وجدت بعض المشابهات العارضة اتفاقاً من طبيعة البحث (٣) . ومن هذا الرأي — ولكن

١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٠٥ .
٢) ضحى الاسلام ٢٤٥/١ .
٣) تاريخ الأدب العربي ١٢٣/٢ وهامش رقم ٥ ص ١٢٤ .

بالنسبة للنحو وحده – الدكتور شوقي ضيف الذي ينفي وجود أي مؤثر أجنبي (١) . ومن هذا الرأي كذلك الدكتور عبد الله درويش – ولكن بالنسبة للمعجم والأصوات – فهو يرى أن الخليل هو مبتدع نظامه المعجمي ، وينفي أخذ الخليل ترتيبه الصوتي عن الهنود (٢) .

فأي هذه الآراء أقرب إلى الصحة وأدنى إلى القبول ؟ وما الرأي الذي يميل نحن إليه بعد رحلتنا الطويلة هذه مع أبحاث الهنود والعرب على السواء ؟ وبعد ما أثبتناه من وجود علاقات ثقافية مختلفة بين الهنود والعرب ؟

يبدو أن الرأي الذي يمكن أن يطمئن إليه الباحث هو ذلك الذي يرجح جانب الإيجاب على جانب السلب ، ويثبت تأثيراً هندياً من نوع ما على اللغويين العرب ، أو على الأقل يميل بدرجة كبيرة إلى احتمال وجود هذا التأثير .

ومن الجائز أن تكون صور هذا التأثير شاملة ما يأتي :

١) فكرة الترتيب الصوتي للأحرف الهجائية مع البدء بأعمق الأصوات مخرجاً . فمن المحتمل جداً أن يكون الخليل قد سمع بترتيب صوتي عند الهنود لحروف لغتهم ، فقام بنفس المحاولة في اللغة العربية ، ولكن دون أن يحاكيهم في ترتيبهم الذي اختاروه كما سنرى فيما بعد .

٢) تصنيف الأصوات عند العرب تبعاً لمكان النطق ودرجة الاتصال أو التقارب بين الأعضاء . فهذا يطابق منهج الهنود ويخالف ما فعله اليونان واللاتين الذين أقاموا تصنيفهم على أساس الانطباعات السمعية للأصوات المختلفة (٣) ، وإن كنا نلمح خلافاً بين الفريقين في التطبيق .

---

١) المدارس النحوية ص ٢٠ . وهو يؤسس فكرته على بناء النحو العربي على نظرية العامل ولا وجود لها في أي نحو أجنبي .

٢) المعاجم العربية ص ٢ ، ٤ .

٣) A Critical Study ص ٣١٣ .

٣) استخدام بعض المصطلحات أو التقسيمات النحوية مثل الحديث عن « اسم الفعل » ، ومثل القول بأن « الحرف » لا يحمل معنى في ذاته ، ومثل تقسيم الكلمات إلى متصرف وجامد .

٤) ملاحظة حجم الكلمة في ترتيب بعض المعاجم ، كما فعل الخليل بن أحمد في معجمه العين ، وكما فعل ابن دريد في معجمه الجمهرة ، وكما فعلت معاجم الأبنية التي بدأ ظهورها في القرن الرابع الهجري . ونحن وان كنا لم نسمع عن معجم هندي راعي حجم الكلمة قبل القرن الحادي عشر الميلادي ، فمن الممكن أن يكون هذا النظام قد اتبع في معاجم أخرى قديمة لم تصل إلينا ، أو لم نعلم بوجودها .

٥) اختيار بعض المعاجم العربية ترتيب ألفاظها على حسب حروفها الأخيرة كما فعل الفارابي اللغوي وتبعه الجوهري . وقد سبق أن رأينا اتباع Amara Sinha هذا النظام في معجمه Amara Kosa الذي كتب قبل القرن السادس الميلادي كما سبق أن رجحنا (١) .

٦) النظرية التي نادى بها بعضهم في القرن الرابع ، والقائلة بوحدة المعنى بين الكلمتين أو الكلمات المتفقة في حرفين اثنين فقط ، أو في حرف واحد وقد سبق أن رأينا ياسكا يقول إنه : « في حالة اتفاق المعنى تكفي المشابهة بين الكلمتين في حرف واحد أو مقطع واحد لإجراء الاشتقاق » ، وسبق أن وجدناه يربط الاسم بأصل فعلي يتفق معه في الساكن الأول فقط . وإذا كان « ياسكا » أوغيره من لغويي الهنود قد نجحوا في اشتقاقاتهم هذه فمرجع ذلك أن

---

١) وانظر كذلك مدرسة chandra النحويق ووضع مؤسسها قوائم للكلمات مرتبة بحسب حروفها الأخيرة .

الجذور السنسكريتية ترجع — في معظمها — إلى أصل ثنائي . ولكن نقل النظرية إلى اللغة العربية كان أمراً غريباً ، كما أن تطبيقها أظهر تكلفاً وتعسفاً ، نظراً لثلاثية الأصول العربية .

ولكننا مع ذلك نبدي التحفظات الآتية :

أولا : أن التأثير الهندي وإن بدا مقبولا في بعض حالات المشابهة لا يمكن أن يقبل في حالات أخرى . بل على العكس يعد الاحتمال الآخر ، وهو التأثير العربي هو الأقرب الى القبول .

ثانياً : أن بعض المشابهات بين العملين الهندي والعربي لم تقتصر عليهما وحدهما ، وإنما وجدت في لغات أخرى كذلك . فمن أين لنا أن نقول بنفوذ هندي فيها ؟

ثالثاً : أن التأثير الهندي لم يكن بالصورة الشاملة أو الفعالة التي يتوهمها بعضهم . فإلى جانب أوجه الشبه العديدة بين العملين هناك أوجه خلاف لا حصر لها ، تقف شاهداً على استقلال العقلية العربية ، أو — على الأقل — على عدم ارتباطها المطلق بعجلة البحث الهندي كما حاول بعضهم أن يصور .

رابعاً : أن ما يظنه بعضهم من وجود تأثير هندي على النحو العربي في نشأته وبخاصة في مناهج بحثه ما هو إلا حكم متسرع ، لم يبن على أساس من الواقع اللغوي لكلا الشعبين موضوع الدراسة .

واليكم الآن شرحاً لهذه النقاط على الترتيب :

أما النقطة الأولى فتتضح أكثر ما تتضح في فن المعاجم الذي نما وازدهر عند العرب بسرعة فائقة ، وعنهم أخذته شعوب أخرى من بينهم الهنود . يقول Haywood : « الحقيقة أن العرب في مجال المعاجم يحتلون مكان المركز

سواء في الزمان أو المكان بالنسبة للعالم القديم والحديث ، وبالنسبة للشرق والغرب (١) » . ويقول أيضاً : « ومن العدل أن نقول إن فترة النشاط المعجمي الكبير في الهند كانت في القرن الثاني عشر ، وهو وقت كان العرب فيه قد أنتجوا بعضاً من معاجمهم العظيمة . والنظام المثالي لم يوجد مطلقاً في معاجم الهنود ، ربما بسبب الصياغة الشعرية ، أو ربما لأن المعاجم كان يهدف بها عندهم أن تحفظ عن ظهر قلب(٢) » . ولا ندري كيف يكون الهنود – كما يزعم الدكتور محمد اسماعيل الندوي – قد أثروا « في وضع المناهج للقواميس العربية » ولم يكن لديهم أنفسهم مناهج للقواميس الهندية ؟ بل لم يكن أي من معاجمهم قد حقق النموذج الذي يجدر احتذاؤه. يقول Haywood : «هل الأعمال المعجمية عند الهنود تسمى معاجم ؟ هذه نقطة محل مناقشة » (٣) . ويقول Winternitz : « وقد صرح المعجميون الهنود كثيراً أنهم كتبوا معاجمهم لخدمة الشعراء . ومن أجل هذا كانت المعاجم تؤلف في شكل منظومات» (٤) . ويقول أيضاً : « عدم اتباع الهنود دائماً للترتيب الهجائي يفسر على أن المعاجم الهندية لم تكن تؤلف بقصد الاستشارة والرجوع إليها ، ولكن من أجل حفظها عن ظهر قلب أو حفظ مجموعة معينة من كلماتها » (٥). ويقول Weber : « المعاجم السنسكريتية بالمعنى العلمي لم تظهر إلا في وقت متأخر » (٦) . ويقول Devasthali : « لا نجد أنفسنا أمام معجم حقيقي قبل معجم Amara المسمى Amarakosa» (٧). ويقول Tiwaree : «المعاجم المسماة Koshas لها عيبان :

١) Arabic lexicography ص ٢ .
٢) المرجع ص ٧ .
٣) المرجع ص ٤ .
٤) History of Indian literature ص ٤٥٥ .
٥) هامش رقم ١ ص ٤٥٥ .
٦) The History of Indian literature ص ٢٢٧ .
٧) The History and Culture – مقالة بعنوان Sanskrit ص ٣١٨ .

أولهما أنها كتبت في شكل منظومات بدلا من الترتيب الهجائي ، هذا جعلها غير عملية ، ولا يمكن الاستفادة بأي منها إلا بعد قراءته كله . وثانيهما صعوبة اللغة التي كتبت بها » (١) . ويمكن أن يضاف إلى هذا عيب ثالث ، وهو احتواء هذا النوع من المعاجم على الأسماء فقط ، ولا وجود للأفعال فيه (٢) ، وبذلك يكون قد فقد أهم عنصرين من عناصر المعجم الكامل ، وهما الشمول والترتيب .

ويذكر Haywood فرقاً أساسياً بين المعجم العربي وما سبقه من معاجم بقوله : « المعجم العربي منذ نشأته كان يهدف إلى تسجيل كل المادة اللغوية بطريقة منظمة وهو بهذا يختلف عن كل المعاجم الأولى للأمم الأخرى التي كان هدفها شرح الكلمات النادرة أو الصعبة » (٣) .

وحتى على فرض التسليم بأخذ الخليل فكرة الترتيب الصوتي عن الهنود فإن معجم العين لم يقتصر على هذه النقطة ، وإنما قام على عدة أسس — إلى جانب الترتيب الصوتي — وهي :

١) عدم جمع المادة عن طريق الاستقراء والتتبع في مؤلفات السابقين ومن شفاه الرواة ، وإنما بطريقة رياضية إحصائية ، حيث كان يقلب حروف المادة إلى أوجهها الممكنة ويبادل بينها . وهو ما عرف فيها بعد بطريقة « التباديل والتوافيق » . وقد استعان الخليل في ذلك بثقافته اللغوية وحفظه للغة العرب إلى جانب خبرته الصوتية ، ومعرفته بالتجمعات الصوتية المسموح بها في اللغة العربية أو غير المسموح بها . وبذلك حكم القوانين الصوتية ، إلى جانب القواعد الرياضية ، إلى جانب الواقع اللغوي المسجل .

---

١) مقدمته لمعجم Amarakosa ص ٣ .
٢) المرجع ص ١١ .
٣) Arabic lexicography ص ٢ .

٢) النظر إلى حجم الكلمة قبل توزيعها ، لأن أخضع تبويب الكلمات لنظام الكمية ؛ فالكلمات الثنائية في باب ، والثلاثية في باب ، والرباعية في باب ، والخماسية في باب . وربما كان هذا هو الذي أوحى إلى أصحاب المعاجم الهندية بمراعاة عدد مقاطع الكلمة ، كما وجد في بعض معاجم القرن الحادي عشر وما بعده .

٣) النظر إلى نوع الحروف التي تتكون منها الكلمة ، فالصحيح وحده ، والمعتل وحده ، واللفيف وحده ...

٤) إلى جانب ذلك شرح كل كلمة ببيان معانيها المختلفة وطرق استعمالها ، والاستشهاد على ذلك بالقرآن والحديث والشعر والفصيح من كلام العرب.

ثم إن عملية الترتيب الهجائي في حد ذاتها لم تكن شيئاً جديداً على العقلية العربية ، فقد كان العرب يستخدمون الترتيب الأبجدي المعروف باسم « أبجد هوز » إلى أن استخدموا الترتيب الألفبائي الذي وضعه نصر بن عاصم ، ورتب الحروف فيه ترتيباً جديداً اقتضاه وضع الحروف المتشابهة في الصورة والبدء بالثلاثيات ، ثم الثنائيات ، ثم المفردات التي لا أشباه لها . وتركت الهمزة في الأول كما كانت في النظام القديم (١) .

وعلى هذا فلو عكس الدكتور الندوي القضية وقال « إن العرب قد أثروا في وضع المناهج للمعاجم الهندية » لكان أقرب إلى الصواب .

ومن المحتمل أن تكون هناك صور أخرى للتأثير العربي لم يمكننا أن نضع أيدينا عليها ، فإننا نجد الباحثين في الحضارتين العربية والهندية يتحدثون عن نفوذ عربي قوي في الحضارة الهندية منذ وقت مبكر . يقول غوستاف لوبون : « من السهل بيان الكيفية التي انتقل بها علم العرب إلى الهند . فالعرب كانت لهم

---

١) انظر مهدي المخزومي : الخليل بن أحمد الفراهيدي ص ٩٦ وما بعدها .

قبل الميلاد بزمن طويل صلات تجارية منظمة بالهند . وبواسطة العرب كان الغرب يتصل بالشرق في القرون القديمة . فلما فتح أتباع محمد العالم القديم بعد حين دامت صلة إحدى الأمتين بالأخرى ؛ فروى مؤلفو العرب وجود كثير من علماء الهندوس في بلاط خلفاء بغداد . ولما مرت الأيام ففتح ورثة الخلفاء من المسلمين الهند تبعهم علماء ؛ فداوموا على نشر معارف العرب فيها . ومن هؤلاء العلماء أذكر البيروني (١) الشهير صديق فاتح الهند الأول محمود الغزنوي . فقد ساح هذا العالم في الهند في القرن الحادي عشر الميلادي ونشر فيها علوم العرب التي كانت مزدهرة في ذلك العصر أيما ازدهار ، وبذلك أضحى العلم الهندوسي بعد القرن الحادي عشر لا يكون غير علم العرب » (٢) .

وأما النقطة الثانية فيكفي للتدليل عليها أن نذكر الحقائق الآتية :

١) أن فن المعاجم قد وجد عند شعوب أخرى غير الهنود مثل اليونانيين والصينيين . وقد عرف لليونانيين معاجم رتبت ألفبائياً ، وأخرى لكلمات المشترك اللفظي ظهرت قبل الإسلام بفترة طويلة . وقد ذكرت المراجع اسم معجم ألفبائي يرجع تاريخه إلى ١٨٠ ق.م. ولكن العصر الذهبي للمعاجم اليونانية كان القرون الأولى بعد الميلاد وبخاصة في الإسكندرية (٣) .

---

١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد ، ولد عام ٣٦٢ هـ = ٩٧٣ م وقيل ٣٥١ هـ = ٩٦٢ م ، وتوفي ٤٤٨ هـ = ١٠٤٨ م (كذا في دائرة المعارف الإسلامية . ولكن عام ١٠٤٨ م يقابل عام ٤٤٠ هـ. راجع ص ٢٨ The Muslim and Christian Calendars)وقد ذهب إلى الهند في حداثته وهناك استقى من مناهل الثقافة الهندية . ولما عاد من الهند استقر في البلاط الغزنوي وأهدى السلطان مسعود بن محمود عام ٤٢١ هـ كتابه « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم» ، وهو مصنف ضخم يحتوي على ١٤٣ باباً ، وهو أجل مؤلفاته خطراً وأبقاها أثراً . (انظر دائرة المعارف الإسلامية – مادة البيروني ، وتعليق محمد مسعود ص ٤٠٢) .

٢) حضارة الهند ص ٥٤٦ ، ٥٤٧ .

٣) Encyclopaedia Britannica مادة Dictionary ، و Haywood ص ٨ .

أما المعاجم الصينية(١) فكثيرة ومن أشهرها معجم Shwo Wan لمؤلفه Hu Shin(٢) الذي ظهر عام١٥٠ ق.م وقيل في نهاية القرن الأولى الميلادي . كذلك معجم Yu Pien لمؤلفه Ku Ye Wang الذي ظهر في اثني عشر مجلداً عام ٥٣٠ (٣) . وعرفت معاجم صينية رتبت بطريقة صوتية ، وكان أولها معجم Hu Fa Yen الذي كتب بين عامي ٥٨١ و٦٠١م ، ورتبت فيه الكلمات صوتياً تبعاً لنطقها . فكل الكلمات ذات الصوت الواحد تعالج معا في باب واحد بغض النظر عن اختلاف طرق كتابتها (٤) .

٢) ترتيب الكلمات في معجم بحسب حروفها الأولى والأخيرة قد وجد في العبرية في وقت يسبق أو يعاصر أول المعاجم العربية التي سلكت نفس المسلك. فيروى أن سعيد الفيومي الذي ولد في صعيد مصر عام ٨٩٢ م = ٢٧٩ هـ وتوفي عام ٩٤٢ م = ٣٣١ هـ قد ألف في مستهل حياته معجماً عبرياً أسماه Agron ، وراعى في ترتيبه الأوائل ثم الأواخر . وقد كان يهدف منه أن يستعمل في الشعر حيث قصد تيسير القافية rhyme ، ونظم القصائد التي إذا جمعت حروف أوائل أبياتها أو أواخرها شكلت كلمة أو عبارة acrostics (٥) .

٣) تقسيم الأصوات إلى علة وساكن قد اهتدى إليه اليونانيون كذلك . وقد ذكر أرسطو أن العلل هي تلك الأصوات التي يمكن أن تنطق بالجهر والنفس بدون تدخل اللسان أو الشفتين ، وذكر كذلك أن العلل يمكن أن تشكل صوتاً

---

١) ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أن الصينية ليس لها ألفباء (Haywood ص ٤) .

٢) ذكر Giles في A History of Chinese أنه توفي عام ١٢٠ م .

٣) Encyclopaedia Britan مادة Dictionary ص ١٩٨ و Giles المرجع السابق .

٤) Haywood ص ٦ .

٥) The Jewish Encyclopaedia ١٠/٥٧٩ ، ٥٨١ ، و Literary History of Hebrew ص ١١٠.

بنفسها ، كما يمكن أن تشكل مقطعاً إما بمفردها وإما مع غيرها ؛ في حين أن السواكن تنطق بمساعدة اللسان أو الشفتين ، وهي غير قابلة للسمع بدون العلل . وقد ذكر اليونانيون كذلك أن السواكن لا تستقل بنفسها في حين تستقل العلل . وقسم اليونانيون أيضاً الأصوات إلى أقسام بحسب كيفية النطق بها (١) .

٤) وقد تحدث اليونانيون أيضاً عن أقسام الكلام Parts of speech . وكان أفلاطون أول من قدم تفريقاً حاسماً بين الاسم والفعل . وميز أرسطو بين أنواع ثلاثة من الكلام هي الاسم والفعل والرابطة . وزاد بعضهم في الأقسام حتى بلغ بها ثمانية(٢) .

٥) كذلك ناقش اليونانيون مشكلة نشأة اللغة ، واختلف الرأي حولها أهي طبيعية أم اصطلاحية (٣) .

٦) أن بعضاً من الحقائق المشتركة بين الهنود والعرب قد وقع اتفاقاً بمحض الصدفة ، أو نتيجة للتشابه المعين بين اللغتين في هذه النقطة بالذات . ويمكن أن يدخل في ذلك التمييز بين الحرف الأصلي والحرف الزائد في الكلمة ، وإفراد « اسم الفعل » بالذكر ، وتقسيم الكلمات إلى متصرف وجامد ، ونحو ذلك .

أما النقطة الثالثة الخاصة بأوجه الخلاف بين العرب والهنود ، فيكفينا لتقريرها أن نضرب الأمثلة الآتية :

١) بالنظر إلى الألفباء نجد أن عدد حروف الألفباء الهندية ٥١ حرفاً في

---

١) السعران : ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ A Critical Study ، وروبنس ص ٢٣ ، ٢٤ A Short History

٢) Greek Pioneers ص ١٠٩ وما بعدها ، و A Short History ص ٢٦ ، و A History of Ancient : Max Muller ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

٣) روبنس : A Short History ص ١٧ .

حين أن عدد حروف الألفباء العربية ٢٩ فقط . وقد بدأت الأولى بالعلل في حين أننا نجد الخليل قد بدأ بالسواكن وأخر العلل إلى آخر الألفبائية . كذلك اشتملت الألفباء الهندية على رموز العلل القصيرة في حين خلت منها الألفباء العربية . واشتملت الألفباء الهندية على رموز العلل البسيطة والمركبة في حين خلت الألفباء العربية من رموز للعلل المركبة . ووضعت الألفباء الهندية أصوات الصفير في آخر الحروف الساكنة ، في حين أن ما يقابلها في في اللغة العربية (ص ــ س ــ ز) قد وضع في مكان وسط . واعتبرت الألفباء الهندية الأصوات (ي ــ ر ــ ل ــ ڤ) من أشباه أصوات العلة ووضعتها متتالية بالترتيب السابق ، في حين أن الياء وضعت مع أحرف العلة في ترتيب الخليل ، وفصلت الياء عن اللام والراء بالضاد في ترتيب ابن جني .

ومعنى هذا أن الخليل وإن كان من المحتمل أن يكون قد سمع بالترتيب الصوتي عند الهنود ، فقد خالفهم في التطبيق . ويبدو أنه اهتدى بذوقه وحسه الفطري إلى الترتيب الذي توصل إليه ، ويؤيد ذلك ما رواه الليث في مقدمة العين عن كيفية اهتداء الخليل إلى هذا النظام ، ونص عبارته : « فدبر ونظر في الحروف كلها وذاقها فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق . وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو : أبْ ــ أتْ ــ أحْ ــ أعْ ــ أغْ ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق فجعلها في أول الكتاب ، ثم قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم »(١). كما يشرح الليث كيف وردت الفكرة إلى ذهن الخليل ، وكيف قلب النظر فيها حتى انتهى إليها وأخرجها إلى حيز الوجود فيقول إن الخليل حين ورد عليه في خراسان فاتحه في تلك الفكرة التي كان من الصعب على العقل العادي إدراكها « فجعلت أستفهمه ويصف لي ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت إليه

١) العين ١/٥٢ .

في هذا المعنى أياماً ، ثم اعتل وحججت ، فرجعت من الحج فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب » (١) .

ومما يدل على أن العرب لم يكونوا ناقلين بل مجتهدين ، ما نراه من خلافات بينهم في ترتيب الأحرف العربية . فترتيب الخليل غير ترتيب سيبويه ، وترتيب ابن جني يختلف قليلا عن ترتيب سيبويه كما سبق أن ذكرنا .

٢) أن دراسة الهنود للأصوات قد تميزت بوضع مقاييس محددة لأصوات اللين ، وتحديد وظيفة التجويف الحنجري ، ودور الأوتار الصوتية في إحداث الجهر والهمس ، وتفريقهم بين صوت العلة البسيط وصوت العلة المركب والرمز للعلل القصيرة في داخل الأبجدية . ولا نجد شيئاً من هذا في اللغة العربية .
٣) لا نجد عند أحد من الأصواتيين العرب القدماء ذكراً للمقطع ، ولا دراسة للأشكال المقطعية في اللغة العربية على النحو الذي وجدناه عند الهنود في لغتهم .

٤) لم يتعرض للنبر أحد من الأصواتيين العرب القدماء ، ولم ينتبه إليه حتى علماء التجويد والقراءات الذين خاضوا في أدق دقائق القراءة القرآنية . ولهذا ليس لدى أحد دليل يهديه إلى مواضع النبر في اللغة العربية كما كان ينطق بها في العصور الإسلامية المبكرة (٢) . وإهمال النبر يأتي على خلاف ما وجدناه عند الهنود .

٥) كان الهنود ينظرون إلى الدراسة الأصواتية على أنها فرع مستقل من فروع علم اللغة ، ولذلك ظهرت لهم فيها مؤلفات مستقلة ، أما العرب فكانوا

---

١) المعاجم العربية للدكتور عبدالله درويش ص ٧٤ .

٢) انظر الأصوات اللغوية للدكتور أنيس ص ١١٩ ، ١٢٠ ودروس في علم الأصوات لكانتينو ص ١٩٥ .

ينظرون إليها على أنها دراسة تابعة ، ولذلك ألحق سيبويه الدراسة الصوتية بآخر كتابه، فبدت كما لو كانت دراسة ثانوية أو قليلة الأهمية، وهي عنده كذلك لأنه اعتبرها مقدمة لدراسة ظاهرة الإدغام . ولم يعط العرب اهتماماً خاصا بالأصوات ، ولم يؤلفوا فيها مؤلفات مستقلة إلا في القرن الرابع على يد ابن جني الذي اعتبر نفسه أول من فعل ذلك فقال : « وما علمت أحداً من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض ، ولا أشبعه هذا الإشباع » (١) .

٦) قسم الهنود الأسماء إلى مذكر ومؤنث ومحايد ، ولكننا نجد العرب يقسمونها إلى مذكر ومؤنث فقط ، رغم أن التقسيم الثلاثي ربما كان أنسب من التقسيم الثنائي ، إذ كان يمكن أن توضع تحت المحايد تلك الكلمات التي يعد اعتبارها مذكراً أو مؤنثاً نوعاً من التحكم .

٧) كذلك قسم الهنود الفعل إلى ماض — ماض حدث لتوه — حاضر — مستقبل . أي أنهم اعتبروا في تقسيمهم عنصر الزمن . أما العرب فلم يفعلوا ذلك وإنما نظروا إلى الصيغة فقسموا الفعل إلى ماض ومضارع وأمر . وإلا فما معنى عد الأمر من أنواع الأفعال ؟ ولماذا يعدون المضارع نوعاً واحداً صالحاً للحال وا لاستقبال ؟

وأما النقطة الرابعة فتحتاج إلى وقفة أطول لمعالجتها . وقد كانت عبارة البيروني التي سبق اقتباسها والتي تقول عن أوليات النحو الهندي إنه « كان قوانين يسيرة كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي » من العبارات التي أسيء فهمها ، وحملت من المعاني ما لا تحتمل ، واتخذت دليلا على وجود تأثير هندي على نشأة النحو العربي . والبيروني بريء كل البراءة مما فسرت به عبارته ؛ فهو لا يرمي إلى أكثر من تشبيه جهود الهنود الأولى في السذاجة والبساطة بعمل أبي

---

١) سر صناعة الإعراب ١/٦٣ .

الأسود الدؤلي دون قصد إلى الربط بين العملين . ولو استعرنا عبارات البلاغيين ومصطلحاتهم لقلنا إن المشبه في عبارة البيروني هو عمل الهنود ، والمشبه به هو عمل أبي الأسود ، والغرض من التشبيه الإيضاح عن طريق تشبيه شيء مجهول لنا بشيء معروف عندنا . أما المجهول فهو جهود الهنود الأولى ، وأما المعلوم فهو جهود أبي الأسود الساذجة البسيطة .

أما الدعوى التي يدعيها الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أيوب فمن السهل ردها بما يأتي :

١) أنها مبنية على أساس وجود مدرسة نحوية هندية واحدة ، أو اتجاه نحوي هندي واحد ، وهذا خلاف الواقع . وقد سبق أن رأينا — في فصل « علم النحو » من الباب الأول — تعدد المدارس الهندية وتنوع مناهجها ، كما سبق أن عرضنا لأهم هذه المدارس التي سبقت أو عاصرت نشأة الدراسات النحوية عند العرب .

٢) وحتى إذا كان الدكتور أيوب حين تحدث عن مميزات الدراسات اللغوية الهندية يعني خصائص المدرسة البانينية التي كتبت لها الشهرة على سائر المدارس، الهندية ، فليس هناك وجه شبه بين منهج هذه المدرسة ، ومنهج سيبويه في الكتاب أو منهج أي نحوي عربي جاء بعد سيبويه حتى يومنا الحاضر . وأمامنا كتاب بانيني المشهور المسمى Ashtadhyayi ينطق بذلك :

أ — فالكتاب مقسم إلى ثمانية أقسام ، وكل قسم مقسم إلى أربعة فصول وقد قدم الكتاب في شكل قواعد مختصرة ، أو قوانين موجزة يبلغ مجموعها أربعة آلاف قاعدة(١) .

---

١) Systems : Belvalkar ص ١٩ .

ب – يقدم القسم الأول من الكتاب تعريفات عامة ، وقواعد للشرح ، كما يعالج مشكلات صوتية متنوعة . أما القسم الثاني فيعالج موضوع الإبدال ، وهدف التصريف ، وإعطاء قواعد للجنس (gender) والعدد . ويتناول القسم الثالث موضوع اللواحق الأساسية . أما القسمان الرابع والخامس فيتعرضان للواحق التي يمكن إضافتها للأصل غير الفعلي مكونة جذراً غير أساسي ولواحق تصريفية . ويتناول القسمان السادس والسابع بحوثاً صرفية صوتية morpho-phonemic على مستوى الكلمة . أما القسم الثامن فيتناول موضوعات متعددة .

ومن هذا يتضح عدم الربط بين الأقسام ، وعدم الانسجام في معالجة المادة اللغوية . ولهذا يقول Misra : « والمشكلة الأساسية في ترتيب كهذا هو أن المرء لا بد أن يذهب خلال الدراسة كلها قبل أن يمكنه شرح الحدث الكلامي أو تحليله» (١) ، ويقول Goldstucker : « ترتيب هذه القواعد يختلف تماماً عما يتوقعه أوربي في عمل نحو . لأنه قام على أساس تتبع الظواهر اللغوية ، وليس تصنيف المادة اللغوية على أساس من أجزاء الكلام . وكذلك كل كتاب وكل فصل ليس فيه أي تنظيم علمي(٢) » .

ج – إذا أخذنا الجزء الأول من مطبوعة الـ Ashtadhyayi الذي يقع في في ٨٥٠ صفحة نجده في فصله الأول (٣) يتناول مسائل صوتية مثل : أطوال الأصوات – الأصوات الأنفية – أنفية أصوات العلة إذا تسرب الهواء من الأنف – مخارج الأصوات في الفم – كيفية إحداث الصوت عن طريق الاتصال الكامل لأعضاء النطق ، أو الاتصال البسيط ، أو الفتح الكامل ، أو

---

١) The Descriptive Technique ص ٢٢ – ٢٤ .

٢) Sanskrit ص ١٢٤ .

٣) ص ٣ – ٦٨ .

الفتح البسيط — تقسيم الأصوات باعتبارات مختلفة — أشكال العلة وحصر عددها في ١٨ — العلة المركبة diphthong — المقارنة بين العلل والسواكن — الإبدال وشروطه . وأما فصله الثاني فيتناول موضوعات مثل : تقسيم العلة إلى طويلة وقصيرة وفائقة في الطول وذكر مقاييس ذلك — العلة المنبورة ودرجات النبر — أحكام صوتية خاصة بترتيل نصوص الفيدا ...

وهكذا نرى أن الجانب الصوتي قد لاقى اهتمام بانيني حتى صدر به كتابه ، كما أنه عالج مشاكل الأصوات بطريقة مستفيضة ، وهما خاصتان نفتقدهما في كتاب سيبويه .

٣) أن النحو الهندي لم يتخلص من سلطان الفلسفة كما ظن الدكتور أيوب واعتبر ذلك فرقاً أساسياً بين الهنود واليونانيين . وقد وجد اتجاه بين نحاة الهنود لفلسفة النحوي الهندي وصبغه الصبغة العقلية . يقول Chakravarti : « إن النحو السنسكريتي يعتبر نظاماً قائماً بذاته يعتمد إلى حد كبير على المبادىء الفلسفية » (١) . ويقول عن باتنجالي : « إن النحو قد نال على يديه معالجة علمية كبيرة ، وبالتالي أصبح يعد نظاماً معيناً من الفلسفة . لقد عالج النحو من نقطة منطقية محاولا أن يجد النظريات التي تكمن وراء القواعد التي وضعها بانيني وكاتيايانا » (٢) . ويقول عن Bhartrhari إنه كان لديه « المقدرة على شرح النحو من نقطة فلسفية محضة ، وعلى يديه أصبح النحو يعالج على أنه نظام مطرد من الفلسفة ، وقد عالجه هو كذلك » . ويقول عنهما معاً : « يعد باتنجالي وبهارترهاري من أعظم النحاة . ويستحقان احترامنا باعتبارهما مؤسسي فرع مهم من الدراسة هو (فلسفة النحو) . إن ما فعلاه يعد أهم مما قام به أفلاطون وأرسطو لعلم الفلسفة الخالص » (٣) .

---

١) ص ١٣ من المقدمة لكتابه : The philosophy of Sanskrit grammar

٢) ص ٣٠ من المرجع نفسه .

٣) المرجع ص ٣٨ .

ولا أفهم كيف يظن الدكتور أيوب خلو النحو الهندي من تأثير المَنطق ويفترض أن الصيغة المنطقية في نحو المتأخرين جاءت عن طريق الإغريق ؟ إن المنطق كما يقال : علم كل العلوم Science of all Sciences . وللمنطق قضاياه المسلمة التي لا تخص علم المنطق وحده ، وإنما تصلح للتطبيق كذلك في فروع أخرى من العلم ، لما لها من قيمة لا تقبل الجدل . والمنطق logic يعني موافقة الأمر الواقع للحقيقة . وإن النحو في معالجته لتشكيل الكلمات واستخلاص القواعد قد أظهر في بعض الأحيان مطابقة للحقيقة ، وإن ما هو حقيقي بالنسبة للمنطق بناء على هذا يكون حقيقة بالنسبة للنحو(١) .

ومن يرجع إلى بعض المناقشات النحوية عند الهنود يجدها فلسفة صرفاً ؛ كخلافهم حول ما إذا كان هناك ما يمكن أن يسمى بالزمن الحاضر (٢) ، كما أن من يرجع إلى فصل « علم الدلالة » في الباب الأول يرى سلطان الفلسفة والمنطق على عقول لغويي الهنود .

وقد سبق في الفصل الأول من هذا الباب أن عرضنا لبعض جهود الهنود في مجال المنطق والفلسفة ، وبينا اهتماماتهم بهذا النوع من البحث . فكيف يسوغ مع هذا أن نجرد التفكير اللغوي الهندي من مظاهر الفلسفة ، ونبعده عن سلطان المنطق ؟

٤) ولا أدري أخيراً من أين أتى حكم الدكتور أيوب أن كتاب سيبويه يخالف كتب المتأخرين من ناحية عدم تأثره بالمنطق ، وعدم اهتمامه بالنظريات والتقسيمات العقلية ؟ ماذا يبقى في أي كتاب للنحو إذن لو جردناه من النظريات ، ونحينا جانباً ما فيه من تقسيمات عقلية ؟ أليس المنطق هو المسئول عن إعراب

---

١) المرجع ص ٦٩ ، ٧٠ .

٢) المرجع ص ٥٥ ، ٥٦ .

الخليل وسيبويه الفعل المضارع بعد فاء السببية وواو المعية ولام التعليل منصوباً بأن مضمرة ؟ ألم يكن الخليل يثير كثيراً من المناقشات اللفظية ، ويأتي بمسائل افتراضية للتمرين ، وإن لم يكن لها ما يسندها من واقع اللغة (١) ، ومن الطريف هنا أن نسوق للقارىء ما رواه السيرافي عن دماذ صاحب أبي عبيدة من أنه قرأ من النحو إلى بابي الفاء والواو ، فلما استمع إلى قول الخليل وأصحابه أن ما بعدهما ينتصب بأن مضمرة وجوباً نبا فهمه عن ذلك وكتب إلى المازني يشكو إليه ما لقيه من عنت في أبيات ختمها بقوله :

لقد كدت يا بكر من طول ما ... أفكر في بابه أن أجَنّ (٢)

وإذا أراد القارىء مزيداً من الأمثلة لتأويلات سيبويه ومنطقته للقواعد النحوية فإني أحيله إلى ما قاله سيبويه في بيت عدي بن زيد :

أرواح مودع أم بكـــور ... أنت فانظر لأي حال تصير

وهو جواز رفع « أنت » بفعل مضمر يفسره ما بعده (٣) ، ونحيله كذلك إلى ما قاله سيبويه من عدم جواز أن يلي كان معمول الخبر ، وتأويله ما ورد كذلك مثل قول الشاعر :

قنافذ دراجون حول خبائهــم ... بما كان إياهم عطيــة عودا (٤)

---

١) راجع شوقي ضيف : المدارس النحوية ص ٥٥ . ومما جاء فيه : « وفي رأينا أن الخليل وتلميذه سيبويه هما اللذان فتحا باب التمارين غير العملية على مصاريعه ، حيث نرى سيبويه يتوقف في كتابه مرارا ليسأل أستاذه عن تطبيق قاعدة في مثال لم يأت عن العرب .. فمن ذلك سؤال سيبويه الخليل عن رجل سمي « أولو » (من قوله عز وجل نحن أو لو قوة) ... » .

٢) أخبار النحويين البصريين ص ٧٧ ، ٧٨ .

٣) الكتاب ١/٨١ .

٤) انظر نقد المعري لرأي سيبويه في عبث الوليد ص ٨٠ .

ومثال أخير أذكره في هذا المقام وهو رواية سيبويه لبيت النابغة الجعدي :

فليس بمعروف لنا أن نردهــا صحاحا ولا مستنكراً أن تعقرا

وإجازته فيه الأوجه الثلاثة برفع « مستنكر » وجرها ونصبها (١) وهذا هو رأي أبي العلاء المعري فيما قاله سيبويه ساقه بطريقته الخاصة : « يقول ابن القارح مخاطباً نابغة بني جعدة .. أتقول ولا مستنكراً أم مستنكرٍ ؟ فيقول الجعدي : بل مستنكراً . فيقول الشيخ فإن أنشد منشد : مستنكرٍ ماذا تصنع به ؟ فيقول : أزجره وأزبره ، نطق بأمر لا يخبره فيقول الشيخ : إنا لله وإنا إليه راجعون . ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت لأن أبا ليلى أدرك جاهلية وإسلاما ، وغذى بالفصاحة غلاما » (٢) .

وسر إنكار المعري لرواية الجر يرجع إلى ما ذكره سيبويه من أن الخبر المشتق لا بد أن يتحمل ضمير مبتدئه ، أو يكون رافعاً لمتصل بضمر المبتدأ ، أو رافعاً لاسم ظاهر هو عين المبتدأ ، وما ذكره سيبويه كذلك من أن ما عطف على الخبر حكمه حكم الخبر في ذلك (٣) . فنحو « ليس بقائم أبو هند ولا قاعدة أمها » يمتنع فيه خفض « قاعدة » عطفاً على لفظ الخبر سواء جعلت « أمها » فاعلا للوصف قبلها أم معطوفا على اسم ليس . أما الأول فلأن هذا المعطوف ليس متصلا بضمير يربطه بالمحدث عنه وهو اسم ليس . وأما الثاني فلما يلزم من العطف على معمولي عاملين مختلفين وهو غير جائز عند سيبويه . وقد جعل المعري قول النابغة من هذا القبيل فمنع الخفض . أما سيبويه فقد أجاز الخفض على تأويل بعيد يجعل الثاني من سببي الأول (٤) . ولاحظ كذلك ما ورد في

١) الكتاب ٣٢/١ .
٢) رسالة الغفران ص ١٠٠ .
٣) الكتاب ٣٠/١ ، ٣١ .
٤) الكتاب ٣٢/١ ، ٣٣ وشرح السيرافي ٣٤٨/١ .

توجيه رأي سيبويه من قوله « لا يجوز العطف على معمولي عاملين مختلفين » أليس ذلك من آثار الفلسفة ؛ أليس نتيجة لتحرج سيبويه من القول بتسلط عاملين مختلفين على معمول واحد لئلا يلزم أن يكون المعمول مرفوعاً منصوباً مثلا ، مع أنه لا يجتمع الضدان في محل (١) ؟ وماذا يعني سيبويه بأن إهمال « ما » عند التميميين هو القياس ؟ أليس هو القياس النظري المجرد ؟

* * *

وبعد :

فلعل الصورة تكون قد اتضحت الآن في موضوع التأثير الهندي على الدراسات اللغوية العربية . ولعل أولئك الذين تطرفوا — سواء في جانب الإيجاب أو جانب السلب — يتفقون معنا الآن على الرأي الوسط الذي اخترناه وهو ذلك الذي يثبت تأثيرا هنديا من نوع ما ، ولكنه تأثير جزئي ومحدود ، ولم يكن شاملا في وقت من الأوقات . وأنّى له أن يكون شاملا وهو يتعلق بنوع من الدراسة ذات الطابع الخاص لارتباطها بالدين ؟ ولقد كان المسلمون الأولون شديدي الحساسية في كل ما يتعلق بشئون العقيدة ، نافرين من ربط الإسلام ومباحثه بدين قديم أو عقيدة سابقة .

ولقد كانت نشأة الدراسات اللغوية عند الهنود نشأة دينية وكانت الحال كذلك بالنسبة للعرب ، فقد نشأت في أحضان الدين ، وفي ظل القرآن ، وكلام الرسول . ولم يكن من المستساغ حينئذ أن يغترف العرب من دراسات السابقين في نفس الميدان وينسجوا على منوالها ، حتى لا يطبقوا أحكاماً ارتبطت بديانات

١) ومثال آخر لتسلط الفلسفة وهو رفض سيبويه العبارة : « قام ومضى المحمدون » حتى لا يكون الفاعل الواحد فاعلا لفعلين — مع أن هذا المثال وارد عن العرب . وبذلك نجده قد غلب القاعدة الفلسفية التي تمنع اجتماع مؤثرين على أثر واحد ، وحكمها في المسموع من كلام العرب . (انظر المدارس النحوية لشوقي ضيف ص ٦٦) .

غير إسلامية على لغة القرآن والرسول ، وبخاصة أن الديانات الهندية ارتبطت في أذهان المسلمين بالوثنية ، وتعدد الآلهة ، والزهد في الحياة الدنيا ، وهي صفات ينكرها الإسلام أشد الانكار . يقول رالف لنتون : « تختلف نظرة الهندوسية إلى العالم عن نظرة الإسلام اختلافاً كبيراً ، بل وتفصل بينهما هوة لا جسر فوقها ومن الصعب جداً أن نجد مدنيّتين أكثر تباينا واختلافا » (١) .

ولعل هذا هو نفسه السبب في أن القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى لم تجد من يتعرض لترجمتها رغم قيمتها الأدبية العالمية ، وذلك لما لها من طابع وثني ، وتعديد للآلهة ، وتصوير لها في صورة الآدميين .

مكتبة لسان العرب
علاء الدين شوقي
lisanarabs.blogspot.com

١) شجرة الحضارة ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

مكتبة لسان العرب

اهــم المراجــع

أولا : المراجع الأجنبية

1 — Amarakosa, Amara Sinha,
1875 – D.D. Tiwaree تحقيق وتقديم

2 — Amara's Namalinganusasana
a) Poona, 1940 — Padhye, Sardcsai تحقيق
b) Poona, 1941 — H.D. Sharma تحقيق

3 — Arabic lexicography, J.A. Haywood, leiden., 1960.

4 — Arabic linguistic Studies in Egypt, A.M. OMAR. Cambridge University thesis, 1966.

5 — Arabic Thought and its Place in History, De lacy O'leary , london, 1939.

6 — A Critical Study of the phonetic Observations of the Arab Grammarians, M.H. Saaran, S.O.A.S. thesis University of London

7 — A History of Ancient Sanskrit literature, Max Muller, India, 1968.

8 — A History of Chinese literature, H.A. Giles, London, 1900

9 — A History of the Sanskrit literature, Varadachari, India, 1925.

10— A Manual of Sanskrit Phonctics, C.C. Uhlenbeck, Delhi, 1960.

11— A Sanskrit Grammar, W.D. Whitney, lcipzig, 1879.

12— A Short History of Linguistics, R.H. Robins, London, 1967.

13— A Short Hitory of Sanskrit literature, H.R. Aggarwal, 1963.

14— A Study in Language and meaning - A Critical examination of some aspects of Indian semantics, B. Bha ttacharya, Calcutta, 1962.

15— An Early Arabic Version of the Mahabharata Story, an article by Chatterji, in Indian linguistics, Vol.2, 1949-1950.

16— Comparative linguistics, R. Lord, Teach Yourself Books, 1966.

17— Cosha, or Dictionary of the Sanskrit language, H.T. Colebrooke ترجمة وتقديم وتعليق ,Serampoor, 1808.

18— Critical Studies in the phonetic Observations of Indian Grammarians, Varma, London, 1929.

19— First lessons in Sanskrit Grammar, J.R. Ballantyne, 1862.

20— General linguistics, R.H. Robins, london, 1966.

21— Grammatical Method in Panini, B. Shefts, New York, 1961.

22— Greek Pioneers in Philology and Grammar, an article by P.B.R. Forbes, in the Classical Review, Vol. 47, 1933.

23— History of Indian literature, M. Winternitz, English translation by S. Jha, Delhi, 1967.

24— History of the Mediaeval School of Indian logic, M.S.C. Vidyabhusana, Calcutta, 1909.

25— India as know to Panini, V.S. Agrawala, University of lucknow, 1953.

26— Language, L. Bloomfield, 1926.

27— Literary History of Grammarians Hebrew H. Hirschfeld, london, 1926.

28— On the Aindra School of Sanskrit Grammarians, A.C. Burnell, Mangalore, 1875.

29— On the Indian and Arabian Division of the Zodiac, an article by Colebrooke, in Miscellaneous Essays, Vol. 2, 1873.

30— On the Origin of the Indian Brahma Alphabet, G. Buhler, Strassburg, 1898.

31— Panini, his place in Sanskrit Literature, T. Goldstucker, India 1965.

32— Papers on Panini and Indian Grammarians in General, H. Skold Lunds Universities, 1925–1926.

33— Patangali's Mahabhashya, Calcutta, 1953. Chatterji
تحقيق وترجمة (إلى الانجليزية) وتعليق

34— Phonetics in Ancient India, W. S. Allen, London, 1961.

35— Portraits of Linguists (1746–1963), Edited by Thomas A. Sebeok, Indiana, 1966.

36— Preface to the Author's Edition of the Amara Kosha, an article in Miscellaneous Essays, 1873.

37— Sanskrit, G. V. Devasthali
بحث ضمن عدة بحوث لمؤلفين متعددين نشرت في بومباي ١٩٥٤ تحت عنوان ؛
The History and Culture of the Indian People.

38— Sanskrit and Culture, T. Goldstucker, Calcutta, 1955.

39— Sanskrit in Perso-Arabic Script, S.K. Chatterji, an article in Indian Linguistics, Vol. 7, 1939.

40— Sanskrit Poetry, D.H. H. Ingalls.

40— Sanskrit Poetry, D.H.H. Ingalls.

41— Systems of Sanskrit Grammar, S.K. Belvalkar, poona, 1915.

42— The Age of Patanjali, P. Bashyacharye, Madras, 1889.

43— The Alphabet, D. Diringer, London, 1949.

44— The Ashtadhyayi of Panini, Delhi,
S.C.Vaus مع تحقيق وترجمة (الى الانجليزية) لـ

45— The Descriptive Technique of Panini, V.N. Misra, Netherlands, 1966.

46— The Encyclopaedia Britannica.

47— The Encyclopaedia of Islam, 1927.

48— The Etymologics of Yaska, S. Varma, India, 1953.

49— The History of Indian Literature, A. Weber, 1878.

50— The Jewish Encyclopaedia.

51— The Language and Script of Ancient India, H. K. Bhattacharyya, Calcutta, 1959.

52— The Linguistic Speculations of the Hindus, Chakravarti, Calcutta, 1933.

53— The Main Trends in Modern Linguistics, M. Leroy, Oxford 1967

54— The Nighantu and the Nirukta, the oldest Indian treatise on etymology, philosophy and Semantics, L. Sarup تحقيق وتقديم England, 1920.

55— The Nirukta, its place in old Indian literatur , its etymologies, H. Skold, lund, 1926.

56— The Philosophy of Sanskrit Grammar, B.C. Chakravarti, Calcutta, 1930.

57— The Sanskrit Dhatupathas, G. B. Palsule, poona, 1961.

58— The Sanskrit language, T. Burrow, London, second ed.

59— The Triumph of the Alphabet, A.C. Moorhouse, New York, 1953.

60— Vedic Metre, E. V. Arnold, Cambridge, 1905.

61— Yaska's Nirukta and the Science of Etymology, B. Bhattacharya, Calcutta, 1958.

ثانياً : المراجع العربية

١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي — تحقيق كرنكو .
٢) الأساس المتين في ضبط نطق لغة المصريين لعبد المسيح المسعودي — ط مصر.
٣) الأصوات (القسم الثاني من علم اللغة العام) للدكتور كمال بشر — المعارف ١٩٧٠ .
٤) الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس — النهضة العربية — ثالثة ١٩٦١
٥) الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي — ط أولى — حيدر آباد ١٣١٠ .
٦) الخليل بن أحمد الفراهيدي للدكتور مهدي المخزومي — الزهراء ١٩٦٠ .
٧) العين للخليل بن أحمد — تحقيق د. عبد الله درويش — بغداد ١٩٦٧ م .
٨) الفارابي اللغوي — رسالة ماجستير لأحمد مختار عمر — دار العلوم ١٩٦٢ .
٩) الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف — دار المعارف — سابعة .
١٠) الفهرست لابن النديم تحقيق فلوجل — مصورة مكتبة خياط ببيروت .
١١) الكتاب لسيبويه — ط بولاق ١٣١٧ هـ — أولى .
١٢) المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف — دار المعارف بمصر .
١٣) المزهر للسيوطي — تحقيق جاد المولي وآخرين — ط الحلبي .
١٤) المستشرقون لنجيب العقيقي — دار المعارف — ط ثالثة .
١٥) المعاجم العربية للدكتور عبد الله درويش — مطبعة الرسالة ١٩٥٦ .
١٦) النصوص اللغوية — نصوص من كتاب الخصائص والمزهر — اختيار د . مازن المبارك — دار الفكر — بيروت .

١٧) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان – ترجمة عبد الحليم النجار – دار المعارف ١٩٦١ .

١٨) تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية للدكتور محمد اسماعيل الندوي – ط أولي بيروت .

١٩) تاريخ الطبري – مصورة مكتبة خياط ببيروت عن طبعة ليدن .

٢٠) تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني – حيدر آباد ١٩٥٨ .

٢١) حضارة العرب لغوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – الحلبي – رابعة ١٩٦٤ .

٢٢) حضارة الهند لغوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – أولي ١٩٤٨ .

٢٣) دائرة المعارف الإسلامية – مادة الخليل بن أحمد .

٢٤) دروس في علم الأصوات العربية لجان كانتينو – ترجمة صالح القرمادي – ١٩٦٦ .

٢٥) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري تحقيق د. بنت الشاطيء – ط أولي – المعارف ١٩٥٠ .

٢٦) سر صناعة الإعراب لابن جني الجزء الأول – تحقيق مصطفى السقا وآخرين – ط أولي ١٩٥٤ .

٢٧) شجرة الحضارة لرالف لنتون – ترجمة د. أحمد فخري – الأنجلو ١٩٦١ .

٢٨) شرح ابن عقيل مع البهجة المرضية للسيوطي – الحلبي بالقاهرة .

٢٩) شرح كتاب سيبويه للسيرافي – مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٣٧ نحو .

٣٠) ضحى الإسلام لأحمد أمين – الجزء الأول – ط النهضة المصرية – ط سابعة .

٣١) ظهر الإسلام لأحمد أمين – الجزء الثاني – ط النهضة المصرية – طرابعة .
٣٢) عبث الوليد لأبي العلاء المعري – ط الترقي بدمشق ١٩٣٦ .
٣٣) علم اللغة للدكتور محمود السعران – دار المعارف ١٩٦٢ .
٣٤) فتح الأقفال للشيخ سليمان الجمزوري – الحلبي ١٩٤٥ .
٣٥) فقه اللغة لمحمد المبارك – دار الفكر ببيروت ١٩٦٨ .
٣٦) قضايا لغوية للدكتور كمال بشر – ١٩٦٢ .
٣٧) لسان العرب لابن منظور
٣٨) محاضرات في علم اللغة للدكتور عبد الرحمن أيوب – جامعة القاهرة كلية دار العلوم ١٩٦٧ – ١٩٦٨ .
٣٩) محاضرات في علم اللغة للدكتور أحمد مختار عمر – مطبعة كلية التجارة ١٩٦٧ – ١٩٦٨ .
٤٠) مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب لأوليري – ترجمة د. تمام حسان – الأنجلو .
٤١) مقدمة ديوان الأدب للفارابي – تحقيق وتقديم د. أحمد مختار عمر – مجلة معهد المخطوطات العربية – مجلد ٧ – جزء ٢ – نوفمبر ١٩٦١ .
٤٢) من التراث اللغوي : المنجد في اللغة لكراع النمل – مقال للدكتور أحمد مختار عمر – مجلة مجمع اللغة العربية ج – ٢٣ – ١٩٦٨ .
٤٣) وفيات الأعيان لابن خلكان – تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد – ط أولى ١٩٤٨ .

* * *